ART
1
c.1

الذات بين الحجاب والسفور

دراسة مقارنة بنيوية وسيكولوجية لسيرتي محمد شكري وغراهام غرين

The Self: Between Veiling and Unveiling

A structural and psychological comparative study of Muhamad Shukri's and Graham Greene's autobiographies

إعداد

هيبة عبد الصمد

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المقارن

كلية الآداب والعلوم - قسم الأدب المقارن

الجامعة اللبنانية الأميركية

كانون الأول 2006

LEBANESE AMERICAN UNIVERSITY

School of Arts and Sciences - Beirut Campus

Thesis Approval Form (Annex III)

Student Name: Haybat Abdul Samad I.D. #: 200202752

Thesis Title :

الذات بين الحجاب والسفور

دراسة مقارنة بنيوية وسيكولوجية لسيرتي محمد شكري وغراهام غرين

Program : Comparative Literature

Division/Dept : Humanities

School : **School of Arts and Sciences**

Approved by:

Thesis Advisor: Professor Latif Zeitouni

Member : Professor Samira Aghacy

Member : Professor Jacqueline Hajjar

Date January 9, 2007

(This document will constitute the first page of the Thesis)

الاهـــــــــــداء

الى من صنع مني حلما ثم صار هو الحلم؛

الى من جعل من ذاتي حجابا لا تخترقه سوى شفافية الحياة؛

الى من علمني معنى الحجاب وأهمية السفور؛

الى أبي، الحيّ الحيّ أبدا في قلمي وفي دمي..

اليك أيها العظيم،

أهدي أوّل خطوة في رحلة البحث عن الذات والوجود..

هيبة عبد الصمد

كلمـــــة شـــكر

انّ هذا العمل لم يكن ليتم لولا عائلتي التي ساندتني في أحلك الظروف، وواكبت عذاباتي والعقبات التي اعترضتني. انّي أدين بالكثير لكلّ فرد منها: زوجي هشام، ابنتي رشا ، وابني رامي، وانّي اذ أشكركم فلعرفاني بالجميل ولتقديري لما قمتم به لأجلنا جميعا.

كما أخصّ بالشكر الاساتذة الذين أحاطوا عملي باهتمامهم ، وزوّدوا كتاباتي بنصائحهم وتجاربهم.

تصميم البحث

1- المقدمـــــــــــة 1

2- الفصل الأول: بين السيرة الذاتية والعلاج النفسي 7

- السيرة الذاتية والعلاج النفسي
- الحجاب والسفور: ضوابط وحدود
- الاعتراف بوجود المشكلة
- التعبير عن المشكلة شفهيا وكتابيا، ودور الزمان والمكان
- مقارنة السيرة الذاتية المرضية بالسير الذاتية الأخرى
- غاية السيرة الذاتية

3- الفصل الثاني: السلطة الأبوية كأساس المشكلة 30

- الشعور بالدونية تجاه الآخرين
- السلطة والأزمة النفسية
- السلطة الأبوية أساس المشكلة
- الربط بين السلطة الأبوية والمرض النفسي
- صورة الأب تتفاوت بين سيرة وأخرى
- الالغاء المعنوي والجسدي للطفل بسبب تسلط الأب

4- الفصل الثالث: ردود الفعل وإدراك الذات 53

- ردود الفعل على السلطة بمختلف أنواعها
- الشعور بالانتقام
- الخوف – الهروب ، ومظاهره
- أبعاد الشخصية وتقريبها
- درجة الوعي للمرحلة الراهنة
- التعرية وادراك الذات

5- الفصل الرابع: الذاكرة والنسيان 74

- التحليل والتدوير والاستطراد والتبرير
- الوقفات الوصفية: استذكار واستشراف
- النسيان المتعمد والنسيان غير المتعمد
- نشاط الذاكرة والكذب اللاواعي
- الصدق والتزام الشفافية
- الحلم : حقيقة أم وهم ؟

6- الخاتمة 92

7- المراجع العربية 95

8- المراجع الأجنبية 97

المقـــدمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة

تعريف السيرة

حين يصرخ الطّفل صرخته الأولى يحجز في مساحة المكان مكاناً له، ويسجّل في سجل الزمان بداية زمانه ويبدأ صراعه مع الحياة. لهذا تسجيل زمن ولادته في أوراق رّسميّة هو الشهادة على وجوده وتسجيل مكانها هو الشهادة على هويته الخارجية. أما الهوية الذاتية فلا تتحقق إلا بعد توالي الايام والأحداث وتراكم التجارب والمؤثرات. وهي لا تسجل في السجلات الرسمية بل في سجل شخصي يوقعه شخص واحد لأنه الشخص الوحيد القادر على استعادة صور هذه التجارب والمؤثرات. هذا السجل الشخصي يسمى السيرة الذاتية.

تقدم السيرة الذاتية " كشفا عن حياة مكتملة تقريبا، عن فترة الطفولة أو الشباب أو نشاط ظاهر الأهمية في حياة فرد. وهي وسيلة مختارة لمعرفة الذات"[1]. وكاتب السيرة الذاتية يعرض سيرة حياته من طفولته إلى حاضره، مرورا بفترة الصبا، ويعلق، ايجابا أو سلبا، على أحداث حياته، بدءاً من تجاربه الاولى مع والديه واخوته ثم أقاربه وأصحابه. فيكشف أسراره، ويعترف بأخطائه، ويسفر عن عيوبه.

---

[1] لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية الطبعة الأولى (بيروت : دار النهار للنشر ومكتبة لبنان ناشرون ، 2002) 111.

شروطها وغايتها

وللسيرة الذاتية " صيغ كثيرة وأشكال متعددة لا تقتصر على سرد حياة الانسان سردا تسجيليا ميكانيكيا، بل تهدف الى الاختيار والتّركيز والتّصنيف ومتابعة خطّ ذي دلالة معيّنة في حياة الانسان"[1] . وغالباً ما تهدف الى غاية سواء أفصح عنها الكاتب أو ترك للقارىء أمر استنتاجها.

كتابة السيرة الذاتية أمر صعب، لأن استعادة ماضينا بكامله وسرده بتفاصيله الدقيقة امر لا يقوى عليه الانسان. وهذا ما رآه ميخائيل نعيمة في مقدمة "سبعون" حين اعتبر أن كاتب السيرة عاجز عن رواية سيرته كاملة مهما ادّعى ذلك : " انّك خادع ومخدوع كلما حاولت أن تحكي لنفسك أو للناس حكاية ساعة واحدة من ساعات عمرك، لأنك لن تحكي الا بعضا منها . فكيف بك تروي حكاية سبعين سنة؟!"[2]. لا بد اذن من الاختيار والانتقاء والاستنساب والتفضيل بين الأحداث. والسيرة الذاتية " عمل محفوف بالمخاطر [...] لأن الانسان يجد صعوبة في التّجرد من نفسه، والتخلّص من أهوائه ونزعاته الخاصة"[3].

ووعي الذات هو الغاية التي أضنى الفلاسفة والمفكرين والعلماء والأدباء أنفسهم في سبيلها.[4] وقد تطورت السيرة الذاتية في العصر الحديث وصارت تكشف عن الكثير

---

[1] - نبيل راغب، دليل النقد الادبيّ (القاهرة : دار غريب للطباعة، 1981) 1.
[2] ميخائيل نعيمة ، سبعون الطبعة الأولى(بيروت : دار العلم للملايين ، 1999) 9.
[3] عبدالله بن عبد الرحمن الحيدري ، السيرة الذاتية في الادب السعودي (الرّياض : دار المعراج الدولية للنشر، 1998) 303.
[4] يحي ابراهيم عبد الدايم ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بيروت : دار النهضة العربية، 1974) 24

من الأسرار النفسية والطبيعية، وتنتهج " سبيل التحليل والتفسير والتعليل والتصوير"[1] . فالمادة التي تتناولها السيرة الذاتية هي الذاكرة واللاوعي، ولو تطرق كاتبها الى جوانب اخرى لاتمام صورة الحدث. لهذا تحتاج دراستها الى مقاربة سيكولوجية شبيهة بما يفعله المحلل النفسي.

علاقتها بعلم النفس

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل السيرة ذاتية علاجية؟ والجواب يرتبط بقدرة كاتب السيرة على تجاوز الأنا الاجتماعية والتعامل مع أحداث حياته بصدق. فكاتب السيرة الذاتية، كما تقول تهاني شاكر " يؤدي دور الشاهد والقاضي معا"[2]، أي المريض والطبيب في آن واحد.

وينطلق الربط بين التحليل النفسي والسيرة الذاتية من أن السيرة الذاتية تهدف الى تصحيح علاقة المرء بذاته وتسوية حساباته مع نفسه. وهذا رأي ميخائيل نعيمة: " اني اذ أنكب على هذا الكتاب فأستعيد ذكريات ما كان من أمري في هذه الدنيا، سأكون كمن يعيش حياته مرتين. ويقيني أن ذلك وان لم يعد الي نضرة الصبا والزهو والشباب، سيساعدني على تصحيح حساباتي مع نفسي، ومع الناس، ومع الكائنات التي كان لها في حياتي نصيب"[3]. والتحليل النفسي لا يختلف عن ذلك، فهو يدفع المريض إلى استعراض

---

[1] عبد الدايم 21.

[2] تهاني شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002) 19 .

[3] نعيمة 14 .

مراحل حياته واستعادة تفاصيلها ليكشف عن العقدة فيها، وعندئذ يتيسر للمريض "أن يتصالح مع ذاته، و يتكيف مع ظروف الحياة"[1].

وهذه هي تجربة ليلى عسيران في سيرتها. فقد نظرت هذه الكاتبة الى القلق الذي استحوز على حياتها، واعتبرته مرضاً جديّاً، ورأت أن السيرة الذاتية هي الحلّ الوحيد لشفائها منه. لأن "اكتشاف الذات هو أولى خطوات الوعي".[2] لهذا بدأت علاجها بالاقرار بوجود المشكلة، ثم بمواجهتها وتحليلها، لكي تدرك حقيقتها وتعالجها. وجدت ليلى عسيران أنها تعاني من حساسية مفرطة تجاه كافة الأشياء فلجأت الى الطبيب النفسي الذي اكتشف ما كانت اكتشفته هي حين كتبت سيرة حياتها. قالت: " لن آخذ تحليل أي طبيب نفسي كجواب قاطع، فأنا أعلم من الطبيب بحقيقة مشاعري، ولو أن أحدهم سبق وجزم لي أن كل مشاكلي العاطفية نابعة من ممات والدي في سن مبكرة من حياتي "[3].

هناك فروقات بين السير الذاتية العربية والسير الذاتية الأجنبية ولدتها البيئة واللغة. ولكن لا وزن لها ولا يمكن ضبطها دون تكلف. فالسيرة الذاتية نمط كتابي غربي استورده العرب من الغرب مثلما استوردوا الرواية والمسرحية. ولكنه لم يتطور في اللغة العربية إلى الحد الذي يعطيه طابعاً متميزاً. فالكتّاب الذين أقبلوا عليه قليلون. كما أن طبيعة السيرة الذاتية تضيّق مجال الكتابة فيها. فالكاتب يكتب سيرته مرة بينما يكتب عدداً كبيراً من الروايات أو المسرحيات. لهذا لا نجد اختلافاً بين السير العربية والأجنبية أكثر مما هو قائم بين السير العربية نفسها.

---

[1] لطفي الشربيني، موسوعة شرح المصطلحات النفسية الطبعة الأولى (بيروت : دار النهضة العربية، 2001) 5.
[2] ليلى عسيران، شرائط ملوّنة من حياتي (بيروت: دار رياض الريس، 1994) 115.
[3] عسيران 260.

موضوع البحث

"الذات بين الحجاب والسفور" بحث يتناول سيرتي الكاتب المغربي محمد شكري، والكاتب الانكليزي غراهام غرين، بما فيهما من اختلاف ولّده تباين الظروف والبيئة واللغة وما فيهما من تشابه أوجدته روح الانسان الواحدة ولغة الألم المشتركة اللتان عكستهما كلمات السيرتين حيث تعرّى كل منهما أمام القارىء ليكشف فيه عن تجاربه وأفكاره وما سجلته الذاكرة من مواقف.

واللافت في سيرتي غراهام غرين ومحمد شكري – وهما عملان ينتميان الى حضارتين ومجتمعين ولغتين مختلفتين– ان الفرق الحضاري والجغرافي واللغوي لا يحجب ما هو مشترك بينهما، وهو الانساني في الانسان.

منهج البحث

لهذا ركزت عملي على البحث عن المشترك بين السيرتين، أي عن تلك العناصر الحياتية الانسانية التي تجمع بين الناس مهما فرقت بينهم الهويات. كتب شكري وغرين سيرتيهما في أواخر القرن العشرين. وقد استخدمها كل منهما وسيلة لمواجهة مشاكله النفسية. واعتبر كلاهما أن السلطة الأبوية التي مارست الإلغاء المعنوي والمادي كانت أساس أزمتهما النفسية، لأنها ولدت لديهما الشعور بالدونية تجاه الآخرين.

ولقد وجدت في تحليل يونغ النفسي للشخصية الانسانية في كتابه "الانسان ورموزه" المنهج الصالح لدراسة السيرة الذاتية لأنه يربط بين كتابة السيرة الذاتية والعلاج النفسي، ويرى أن "الشخصية الانسانية قناع يمثل به الانسان دوره أمام الغير.

وأن بلوغ اللاوعي وفهم الانسان على حقيقته يفرض تجاوز الستائر والأقنعة "[1]. وتنطبق أدوات يونغ كالتحليل والتدوير والاستبصار على الطرق التي اتبعها محمد شكري وغراهام غرين لفهم الذات والتخلص من المكبوتات المختزنة في اللاوعي. وإذا كان فرويد عرّف اللاوعي بأنه مخزن التجارب والذكريات والحوادث الشخصية المكبوتة، واعتبر الطريق إلى معرفة الذات تمر باستعادة وعينا للأمور التي سجلتها ذاكرتنا في سجل النسيان، فإن هذه الاستعادة، في رأي يونغ، هي ما يساعد المرء على إدراك ذاته والآخرين، أي على ما يسميه بتعدي الستائر.

وكان لا بد لي من المزاوجة بين منهج يونغ النفسي والمنهج السردي البنيوي الذي ينظر الى النص باعتباره بنية متماسكة متفاعلة العناصر وكل عنصر يؤدي وظيفة مرسومة في النص. فالسيرة الذاتية في المحصّلة نص سردي نفسي. إنها حكاية تتضمن راوياً ومروياً له وأحداثاً وشخصيات وأزمنة وأمكنة ووقفات وصفية وحواراً وحبكة وخاتمة. ولكنها تتميز بأن راويها هو مؤلفها وبأن أحداثها هي تجارب حياته وذكرياته واستيهاماته ومكبوتاته.

[1] - Carl Gustav Jung, *Man and His Symbols* (London: Adlus Books, 1964)268.

الفصل الأول

بين السيرة الذاتية والعلاج نفسي

رغم أنّ كل مرحلة من مراحل العمر لها دورها ، الا أنّ للطفولة مكانة خاصّة ومميزة في السيرة الذاتية بسبب أهميّتها في تحديد كيان الشخصيّة وادراك الأنا ومركزيّتها في الزمن الحاضر. فالطفولة هي بمثابة وطن مهجور يأكلنا الحنين اليه من وقت الى آخر ، ويؤلمنا الانسلاخ عنه حين تثقل علينا غبرة الزمن ووجع الواقع. وقلّما نقرأ سيرة ذاتيّة لم تتطرّق الى موضوع الطفولة. فالطفولة بداية وعي الذات واستيعاب الموجودات والشخصيات وفهم الأحداث بايجابياتها وسلبياتها.

والغالب في السيرة الذاتية هو الانطلاق من مرحلة الطفولة. ولكن استعادة هذه المرحلة لا تتم أحياناً من دون الاستعانة بالخيال لربط ما تفكك من الأجزاء وما غمض من الأسباب وما نقص من الحوادث. فالذاكرة لا تستعيد إلا ما انطبع فيها بقوة التأثر والفعل والانفعال.

حين قرّر محمّد شكري ، الكاتب المغربي ، أن يكتب سيرته، لم يجرؤ على كتابتها باللغة العربيّة فكتبها باللغة الانكليزية لا لأنّه لم يكن يتقن هذه اللغة، بل لما تضمّنته حياته وبالتالي سيرته الادبيّة من سفور. ولهذا بقي الجزء الأول من السيرة، الذي حمل عنوان "الخبز الحافي"،عام 1972 ممنوعا من النشر مدّة عشر سنوات الى أن أتى طاهر بن جلون وترجم الكتاب الى العربيّة فتمّ نشره في المغرب. " انها حكاية ثلاث عشرة سنة من الطفولة المعذبة والمشردة في عالم يشبه أشباح البشر وأساطير الحياة. انها الطفولة : الباحثة عن نجاة في عالم قاس ولئيم" [1] ، على حد قول يحي بن الوليد .

---

[1]- يحي بن الوليد، "مع شكري" ، مجلة القدس " ، 2000 .

أخذ شكري فقره ومزجه بدم أخيه القتيل، ثم غمس خبزه الحافي بذل الشذوذ وقرأ جوعه في سلطة أبيه الطاغية فأحس بطفولته حكما بالعذاب المؤبد. حاول شكري أن يهرب بالجسد ولكنه عاد اليه بالكتابة عنه وافصح عن عقدة النقص التي ولدها فيه. فاتخذت كتابة السيرة عنده شكلا من أشكال الملجأ ، وضربا من ضروب العلاج . فكان "الخبز الحافي" الخطوة الأولى في رحلة الاستشفاء النفسي من مرض لم ينفك شكري عن ذكره والتحدث عن تفاصيله حتىّ في الجزء الثاني من سيرته الذي حمل عنوان " الشطّار" .

واذا ما تابعنا حياة شكري، من بدايتها الى نهاية زمن كتابتها، وجدنا أن مشكلته ليست الفقر والجهل والتشرّد ، بل ما هو أكبر من ذلك، انها تسلط أبيه عليه واذلاله له الى حد خلق أزمة نفسيّة عنده لم يشف منها شكري الا بعد وفاة أبيه . علما أنه اعلن وفاة ابيه في كتابه قبل وفاته الفعلية بنحو عشرين سنة.[1]

سبب الوالد لشكري أزمة نفسية، وصراعا داخليا بلغ حد الكابوس. وظلّ شكري يقاوم هذا الاضطراب فترة طويلة، من بداية وعيه الى نهاية سطور الجزء الثاني من سيرته حيث ماتت والدته فتحرر كليا من نسبه وعائلته ، قال: " غادرت تطوان شاعرا أن حبلنا السري قد انقطع ، وأن جذوري من شجرة عائلتي قد تعفنت الى الأبد "[2] . يحس القارىء بانفصال شكري التام عن عائلته والبيئة التي طالما كانت مصدر شقاء له. ورغم ذلك، لا يخفى عن القارىء حزن شكري الدفين الموجع ويأسه الذي يكاد لا ينتهي.. لقد كانت والدته الخيط الرفيع الذي يربطه بالعائلة رغم قسوة أبيه وتعجرفه. لقد كان يتحمّل الذل والهوان من أجلها ولا يتوانى عن اذلال نفسه أمامه لأجلها : " الصّمت الصحراوي ما زال قائما بيني

---

[1]- في مدرسة المعتمد بن عباد، يلتقي شكري بالمدير بعد أن يسلمه رسالة من حسن ، شقيق زميله عبد الملك، فيسأله عن أبويه ليجيبه شكري بأنّ اباه قد مات. ويعلق بين قوسين: أبي سيموت في صيف 1997 ، أي بعد 23 سنة. الشطار الطبعة الخامسة (بيروت : دار الساقي ، 2004) 9.

[2] - شكري، الشطار 203 .

وبين أبي . ارضاء لأميّ ، كالعادة ، بست له رأسه دون أن نتكلم . الشقاء الذي نلته منه في طفولتي يناله مني في شيخوخته. لا مصالحة بيننا الى الأبد " [1].

وضع شكري يده على الألم وواجه المشكلة بعودته الى سجل ذاكرته، فكانت كتابته لسيرته بمثابة العلاج النفسي. وهذا ما علق به يحي بن الوليد في حواره مع شكري: "شكري بدأعملية التجريب في الكتابة والأدب كوسيلة للخروج من واقع الموت المفروض عليه، وفي المجتمع الكبير الذي كان يعيش في فضائه وهو في طنجة"[2] . ونجد في أسلوب كتابته الكثير من السفور. وأيّ سفور ، فالكتابة بحدّ ذاتها ضرب من الجرأة والتّحرر ولكن ما يكتبه شكري هو ، كما قال طاهر بن جلون " من الأمور التي لا تقال، بحيث يلفها الكتمان ، أو على الأقل لا تكتب وتنشر في الكتب" .

ويعتبر توفيق يوسف عواد أن اختيار الكلمة بحدّ ذاته هو تعبير وجرأة تكشف ما عند الكاتب، قال: "الكلمة في حد ذاتها هي التعري . الكاتب لا يفعل شيئا غير ذلك حتىّ عندما يتكلم عن الآخرين . يظنّ أنه يعرّيهم ، وهو في الواقع لا يعري الا نفسه "[3] . واذا كانت الكلمة هي التعري، فان التعري هو الدواء الشافي في حالة شكري.

وكلمة التعري مصدرها العراء وتعني " كل شيء أعري من سترته فتقول أستره عن العراء" [4] . والسترة ضد السفور .ينطبق هذا القول على أكثر كتاب السيرة، الشرقيين منهم والغربيين. فمنهم من يعلن في بداية سيرته أنه سيكشف المستور ويستذكر أحداث الماضي كما يعيه حاضره، ومنهم من يصرح بالفم الملآن بأن سيرته هي أسلوب من أساليب العلاج الذي تستحيل دونه الحياة . وهذا بالضبط ما نجده عند غراهام غرين الذي

---

[1] - شكري، الشطار 319.
[2] - يحيى بن الوليد، نص الحوار السابق.
3- توفيق يوسف عواد ، حصاد العمر الطبعة الثانية (بيروت : مكتبة لبنان . 2001) 9 .
4- ابن منظور ، لسان العرب الطبعة الثالثة (بيروت : دار صادر ، المجلد العاشر ، 2004) 130.

يصرح في نهاية الجزء الثاني من سيرته الذاتية بأن " السيرة الذاتية هي أسلوب من أساليب العلاج النفسي وأني لا أعلم كيف يستطيع كل هؤلاء الذين لا يكتبون، ولا يؤلفون، ولا يرسمون، أن يهربوا من الجنون والحزن والخوف، وأن يتدبروا أمور الحياة والظروف المعيشية " [1] .

الحديث عن الزمن الماضي هو مادة السيرة . كما أن الحديث عن الزمن الماضي هو مادة التحليل النفسي اذ يستمع الطبيب لمريضه وهو يتحدث عما يجول في ذهنه من أفكار وذكريات . فالعلاج النفسي " هو التدخل لعلاج الحالات النفسية عن طريق التفاعل بين المعالج والمريض دون استخدام الأدوية أو الوسائل العضوية ، ويتم ذلك عن طريق جلسات فردية أو جماعية ، وفيه يتم استخدام الأسلوب التدعيمي ، والتحليلي والسلوكي،.. "[2] .

وحين يقرر كاتب السيرة أن يروي قصة حياته، يكون كالمريض النفسي الذي يقرر المجيء بنفسه الى المحلل النفسي وهذا ما يعتبره الطبيب بداية العلاج. فكاتب السيرة أيضا يتداوى بجلساته مع ماضيه وان كان لا يعترف بذلك. من هنا علينا الدخول الى مسببات الأزمات النفسية والعقد الناتجة عنها، تمهيدا لفكّ رموزها والعثور على الرابط بين السيرة الذاتية والتحليل النفسي.

اذا أخذنا سيرة ميخائيل نعيمة ، " سبعون" ، نجد أن الكاتب لا مشكلة لديه، وان كتابته لسيرته هي لإفادة القارىء من خبراته. والمؤكد هنا أن هذه السيرة الذاتية ليست علاجية لاصرار كاتبها على عدم الاعتراف بوجود مشكلة أساسا. ولكن هذا لا ينطبق على

---

[1] Greene, Graham. *Ways of Escape*. (New York :Simon and Schuster , 1980) 285.

[2] - الشربيني 294 .

محمد شكري، ولا على غراهام غرين. ، فقد صرّح الكاتبان ، كل على طريقته، بوجود مشكلة كبيرة، ولم يختما سيرتيهما الا بعد زوال المشكلة والتحرر منها.

ونعود الى السؤال الأساسي وهو: هل كل سيرة ذاتية دواء لجروح الزمن وحل للمشاكل العالقة ؟ الجواب بكل تأكيد هو النفي لاختلاف صيغ السيرة الذاتية ، فهناك اليوميات و المذكرات و الاعترافات و الذكريات المتقطعة، مما يجعل تحليل النص عملا صعبا اجمالا.

ان السيرة الذاتية هي كشف عن المستور في شخصية الكاتب واستبطان أعماقه، ورسم ذاته المجردة كما يراها في مرآة ذاته الشفافة. ويعتبر علي عبده بركات أن السيرة "هي كشف عن الشخصية أثناء عملية الصراع التي تقوم بين شعور الكاتب بذاته، وموقف المجتمع منه، ومدى خضوع أحد الطرفين للآخر"[1] . وبذلك تكون صورة لعملية الالتحام بالمجتمع ، فنتعرف على صورة الشخصية الراوية ، " ونعرف شخصيته كما تبدو في نظر المشاهد من الخارج، أي صورته منعكسة في مرآة الغير" [2] .

والانسان كائن لا ينفك عن التعبير بلغة مجتمعه والبيئة التي ترعرع فيها. فهو جزء من مجتمعه. والسيرة كما يراها شرف، الباحث والمحاضر المصري في أدب السيرة الذاتية:" قصة تاريخية تعرض سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة ، حتى تتجلى مقومات شخصيته ، وتبرز معالم حياته، لتفصح عن سر نبوغه وتفرده اذ لا تحفل السيرة الا بكل نابغة فريد"[3] . ولقد أثبتت المصادر أن كل سيرة ذاتية، حتى السيرة السياسية ، كتلك التي كتبها توفيق يوسف عواد، هي سيرة انسان كان للابداع مكانة كبيرة في حياته. والسيرة هي حكاية هذا الانسان حين يفرغ ما في جعبته، ليتواصل مع العالم الخارجي. ولذلك، لم تكن

---

[1]- علي عبده بركات، اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية الطبعة الأولى (المملكة العربية السعودية : مطبوعات تهامة، 1982)11.
[2]- بركات 11.
[3] - عبد العزيز شرف. أدب السيرة الذاتية الطبعة الأولى (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر 1992) 5.

كتابة السيرة الذاتية مجرد استذكار للحقائق ، بل أيضا عملية انصهار بين الأحاسيس الحاضرة والفكرة المستذكرة؛ هي طريق يسلكه كاتبها باتجاه ذاته ليعبر عما في نفسه من صراع داخلي، وغموض في فهم الأمور العالقة، ويتوقف القلم عن الكتابة حين يشعر الراوي أن ما بداخله أصبح جليا ولا تعتريه شائبة . عندها يرتاح الكاتب، بعدما جعل من كتابته للسيرة مثابة حالة وضع ومخاض. فما تتضمنه السيرة هو " ذلك الذي تعيد الذات خلقه في صميم الحاضر، فهو ليس بمثابة مجموعة من الذكريات التي يختزنها الوعي بقدر ما هو مقدرة على الاحتفاظ بتلك الذكريات والعمل على استثارتها عند اللزوم، بمقتضى فعالية حاضرة تملك باستمرار بعث تلك الذكريات أو استحضارها " [1] .

أن الماضي هو حقيقة زمنية موجودة بحكم وجود الحاضر. فالماضي هو هذا الخيط الرفيع الذي يبلور الحاضر ويشكل بذرة الخلق في الزمن المنتظر، زمن المستقبل. والذات البشرية تظل تصارع الزمن وتقاوم الظروف متأرجحة بين تجارب الماضي وتصورات المستقبل محاولة اكتساب موقع لها في زمان هذا العالم ومكانه. ويستمر الصراع الى أن تجد هذه الذات هوية لها مستقلة، تتفاعل وتنفعل، تتأثر وتؤثر، الى ان يصبح لديها ما تعكسه في مرآة الكتابة: السيرة الذاتية. ولهذا، تثبت السيرة أنها وسيلة تحليلية لمخزون من الأمراض والجروح والآلام . فهل يستعيد الوعي كل ما يستذكره ويستقصيه في الذاكرة، ام بها لعبة الوعي والرقابة، والحياء والجرأة، والسفور والحجاب ؟

هل من ضوابط أو حدود للسفور والتعري في كتابة السيرة الذاتية؟ والى أي مدى يلتزم الراوي بحجاب المحظورات في مجتمع المحظورات؟ وما هي هذه المحظورات؟ ‘نها بلا شك كل ما لا يقبله المجتمع ولا يرتضيه. وحين يكون المجتمع بلا ضوابط ولا

---

[1]- شرف 26.

محظورات، كالمجتمع الذي عاشه محمد شكري، كيف نستطيع أن نحكم على المساوىء والأخطاء التي اقترفها ؟ لقد عاش شكري حياة الصعلكة والتشرد وانطبعت في ذاكرته صور العذاب والتهميش التي عكست صورة المجتمع المسحوق والمقهور الذي يجهل القيم والمحظورات. لذلك أتت سيرته الذاتية كاشفة فاضحة لما تعتبره المجتمعات المتحضرة عيوبا ومحرمات. فحين يتحدث شكري عن سرقته لدجاجة ميتة، ويأتي بها الى البيت، نجد أن الأم لا توبخه على فعل السرقة، بل انها تمنعه عن أكلها لأن أكل الجيفة حرام فتقول له:"مجنون! (خطفتها مني غاضبة) . الانسان لا يأكل الجيفة"[1] . نستنتج هنا أن السرقة ليست من محظورات مجتمع جائع يتوق الى لقمة العيش في المزابل أو حتى في كسرة خبز مقددة: " تصحبني أمي معها الى السوق الكبير . نشتري ركاما من خبز يابس يبيعه المتسولون تحت شجرة ضخمة قرب ضريح سيدي المخفي. تطبخه في الماء، مع قليل من الزيت والتوابل. أحيانا في الماء وحده"[2] . في الوقت ذاته، لا نجد الأم تشجع السرقة كما لا نجدها تحذر أولادها منها وذلك لأن تأمين القوت قد يكون أهم عندها من اسداء النصائح ومن تربية أطفالها على مبادىء الاجتماعية يتجاهلها المجتمع على الدوام.

أن من يعجز عن تأمين كسرة الخبز لأطفاله الجياع، لا يجد امامه من حل سوى الهروب من الجوع باصدار الحكم بالموت على العائلة بأكملها كما فعل عمّ التفرسيتي، صديق شكري، حين اشتدت ضائقة الجوع عليه وعلى عائلته، فقتل نفسه وأولاده وزوجته وارتاح: " قضوا أياما بدون أكل. لم يرد هو وزوجته أن يطلبا من أحد الجيران شيئا من القوت. بنيا ، من الداخل ، بابا آخر من الحجر والطين وماتوا"[3]. لقد كان البؤس يلف المجتمع بأكمله، وكان الجوع أشرس من أن يقهر اذ أنه امتد زمن العمر ورحلة الحياة. انه

---

[1]- محمد شكري، الخبز الحافي الطبعة الثامنة (بيروت : دار الساقي، 2004) 11.
[2]- شكري، الخبز الحافي 18 .
[3]- شكري، الخبز الحافي 41.

عالم يدفع الانسان الى "اقتناص لقمة الخبز المر، الحافي، بالقوة وعبر اللصوصية اذا اقتضى الأمر كذلك"[1] .

ورغم ذلك، نجد أن شكري يميز بين الحلال والحرام، وان كان قرر أن يتبع الحرام حين بدأ يعمل في مقهى من ساعات الصباح الأولى وحتى منتصف الليل ولا يجني سوى المال القليل الذي يقبضه عنه أبوه. عندها ادرك شكري أن أباه، وصاحب المقهى، يستغله ويأخذ ماله. فقرر الانتفاض عليهما وسرقتهما: "لم يكن يعطيني شيئا من الثلاثين بسيطة .. انه يستغلنا أنا وأمي. صاحب المقهى يستغلني أيضا لأن هناك غلمان مقاهي يتقاضون أكثر من راتبي. سأسرق كل من يستغلني حتى ولو كان أبي وأمي. وهكذا صرت أعتبر أن السرقة حلالا مع أولاد الحرام"[2].

وفي مقالة له عن شكري، يقول سيار الجميل: " هذا الروائي المغربي الاستثناء، الذي لا يهمه أن يبيح جملة من المحظورات كونه لا يعرف الزيف ولا كل أشكاله"[3] .إن شكري بذاته لم ينشأ على المبادىء لانشغال بيئته بما هو الأهم، أي بالبحث عن "الخبز الحافي" في قاع الريف الجائع. فهو لم يتعلم كيف يعيش حرا لأنه ولد في بيئة مفككة لا قيود فيها ولا روابط. وهذا واقع بيئته الاجتماعي الذي ولد أزمته النفسية. انها بيئة، على حد تعبير صبري الحافظ في مقالته "البنية النصية لسيرة التحرر من القهر" والتي نشرت في آخر رواية "الشطار"، ذات "الفضاء الاجتماعي المقموع والمهمش والمسكوت عنه، وفي أكثر الأزمنة ملاءمة له: زمن الاستعمار والانتهاك وهو يقترب من نهايته فتكشف شراسته عن

---

[1]- يحي بن الوليد، " مع شكري" ، مجلة القدس 01/29 / 2002 .
[2]- شكري ، الخبز الحافي 30.
[3]- " مزامنات: محمد شكري. فصلة من كتاب سيار الجميل. نسوة ورجال: ذكريات شاهد الرؤية" ، جريدة الزمان عدد 1962، 2004.

أبشع وجوهها من ناحية، بينما تتراخى قبضة سلطته الغاشمة منذرة بنهايته من ناحية أخرى"[1].

يعتبر يحي بن الوليد أن سيرة شكري هي بمثابة وثيقة اجتماعية تاريخية تسجل الوضع في المغرب قبل وبعد مرحلة الاستقلال ، وتصف المجاعة التي ألمت بالريف المغربي ومراحل القهر والحرمان والتعسف الذي طال أغلب المجتمعات الريفية في المغرب، ومنها طنجة ، المدينة التي نشأ فيها وعاد اليها بعد رحلة تجاربه الطويلة في الحياة.

لقد عاش شكري زمن المحظورات ولم يخترقها الا أنه في كتابته عنها كشف عما يعتبره المجتمع الانساني محظورا ومحرما. وجاءت كتابته عن المحظورات كتابة عن أساسيات العيش التي سمحت لحياته بالاستمرار من خلال كسب الخبز المر. تتجلى المحظورات عنده اذن بفن الكتابة، والكشف عن حياة عارية، مجردة من أي نوع من الستر. لم يراع الكاتب المحظورات لجهله بما يحجبه المجتمع ويتأبى السفور عنها.

ليس الانسان مخلوقا شريرا بالفطرة، انما هو ضحية ظروفه وبيئته. فالطفل، كما يقول جان جاك روسو، هو ضحية التوجيهات التي يتلقاها وهو صغير. وروسو لم يعش حياة مختلفة كثيرا حياة شكري. فقد تربى في الشوارع والأزقة بلا حسيب أو رقيب، وعرفت حياته المحظور في المجتمع، وكذلك كتابته عنها التي كشفت عن عيوب لم يكن الخوض فيها مقبولا، ولا السفر عنها مسموحا. وهو يصور الطفل الجاني مجنى عليه: "ان الذي يدفع الطفل الى أن يخطو أولى خطواته نحو الشر هو دائما المبادىء الطيبة ، التي يساء توجيهها، فلقد مكثت مع معلمي عاما دون أن أفكر في الاقدام على أخذ أي شيء – حتى المأكولات- برغم ما لاقيت من حرمان واغراء مستمرين ، وكانت أولى سرقاتي من أجل شخص سواي،

---

[1]- شكري ، الشطار 228

ولكنها فتحت الباب لسرقات أخرى، لم يكن الباعث اليها محمودا!.. " [1] . لقد كتب روسو سيرته بعد أن قرر أن يفصح عن مكنونات حياته، فكان أن كسر المحظورات بالكتابة عن المحظورات التي عاشها دون ان يدرك أساسا انها كذلك.

أما غرين، فيعكس مجتمعا آخر، فيه الكثير من القيم والمحظورات التي أراد كسرها ونزع الأقنعة عنها. كان غرين طفلا مرفها، في عائلة بريطانية متوسطة الحال. الوالد معلم مدرسة، والوالدة امرأة مثقفة، لا ينام أطفالها الا بعد أن تقرا لهم قصة من كتاب. والفرق هنا شاسع بين بيئة شكري وبيئة غرين ، بغض النظر عن الفروقات بين الحضارتين العربية والغربية. ففي سيرة حياة غرين، يكاد يشم القارئ رائحة العطر الفائح من جسد أمه عن بعد: "لقد ارتبط وجود أمي، من بعيد، ودون أن يضايقني، مع رائحة العطر"[2] .

كما أن في ذاكرة غرين الكثير الكثير من الذكريات الغنية بالعاطفة والحنان. فهو أيضا يربط رائحة أمه برائحة البسكوت المصنوع من القمح الذي كانت تخبئه له في خزانتها ليستمتع به مع كأس الحليب عند الصباح. هذه الحياة مختلفة بلا شك عن الحياة التي عاشها شكري لكنها لا تشبع بالضرورة حاجات غرين النفسية. لقد تعلم في أهم المدارس البريطانية، وخدمه في بيت أهله أكثر من خادم، واحتفل بأعياد ميلاده، وتلقى الهدايا، واحاطته العائلة بالروابط المتينة، وترعرع على مبادىء اجتماعية وأدبية رفيعة المستوى. ألا أن ذلك كله لم يحم غرين من الوقوع أسير المشاكلات النفسية. فقد حاول الانتحار مرات عديدة، وهرب من مدرسته التي كان يعتبرها السجن الأكبر، ولجأ الى الطبيب النفسي وهو في التاسعة من العمر باعترافه الشخصي في سيرته الذاتية وهي الفترة التي ساعدته على استعادة حريته والقيام بالأعمال التي يحب: " لقد كنت مستقلا . استطيع ركوب الأوتوبوس والاتجاه حيث

---

[1]- جان جاك روسو ، اعترافات جان جاك روسو ، ترجمة حلمي مراد. (دمشق- بيروت : دار البشير للطباعة والنشر، 1998) 29.

[2] - Graham Green. *A Sort of Life* (New York: Simon and Schuster, 1971) 19.

أريد. وأستطيع حضور المسرح والسينما بما يسمح لي به مصروفي الخاص. لم يكن علي أن أمارس رياضة المشي صباح كل أحد مع رفقة لا أرى غنى عنها. لقد كنت أنمو بسرعة وأنضج دون أن أشعر بعذاب المرحلة"[1].

الا أن كلا من غرين وشكري اعترفا بوجود مشكلة . فغرين وضع يده على ما يؤلمه. لقد كان ابوه هو المشكلة، والاعتراف بوجود مشكلة هو بداية الحل لها لأن الذين يتألمون " من كون حياتهم بلا معنى ولا مضمون، فيترددون على العيادة الطبية النفسية وليس بسبب أنهم مرضى عصبيين بالمعنى العيادي"[2] . هم يحتاجون إلى أن يرموا بأثقالهم النفسية ويفرغوا ما بداخلهم من آلام. لقد كان ابوه، في أغلب الأيام، يحاول استنطاقه حول رغبته الدائمة في البقاء لوحده . وكان يتهمه بعادة الاستمناء في حين أنه لم يكن يدرك بعد معنى الكلمة: "الحقيقة أقولها، هو أنني لم أكن قد اكتشفت بعد لذة الاستمناء، لم أكن قد عرفت ما تتضمنه الكلمة من معنى، الا أن أبي كان يتهمني بممارسة تلك العادة، ولم يكن ليقتنع وكنت كمن يقاوم مهب الريح"[3] . هذه الحادثة كانت السبب الرئيسي لأن يرسله أبوه الى المحلل النفسي لمعالجته .

والحقيقة أن هذا العلاج النفسي صب في مصلحة غرين لأنه كان مرحلة استعادة ذكريات الماضي مع عائلته، وعلاقته بوالديه: "لم تكن الجلسات أكثر من العودة لأيام الطفولة، وعلاقتي بأمي وأبي، كنت أبحث عن سبب ثورتي في داخلي، في حبي للأشياء، وفي مخاوفي منها"[4]. كان المحلل النفسي يتوجه الى داخل ذاته، ويساعده على استنباط ما فيها. انها فترة مهمة: حرية وتحرر، رحلة علاج نفسي يوجد فيها قارىء للذات، يلاحظ

---

[1]- Greene, *A Sort of Life* 89.

[2]- علي زيعور ، مذاهب علم النفس: مدخل الى علم النفس مع قراءات ونصوص الطبعة الرابعة (بيروت: دار الأندلس ، 1982) 269

[3] - Greene, *A Sort of Life* 92.

[4] - Greene, *A Sort of Life* 94.

ويراقب عن كثب، ويحاول، وقد ينجح في اعادة ترميم هذه الذات العاجزة عن التكيف والتأقلم مع ظروف الحياة.

وعلم النفس يكشف للمرء عن حالات عاشها وتركت في لاوعيه آثرا سلبيا. فالمعرفة في علم النفس تحدد بأنها " معرفة حالات معاشة؛ هي فهم لحالات نعيشها، لحياة داخلية حيث التخيل، والتذكر، والانفعالات، والتفكير.. ؛ هي فهم لسلوك يقوم على الوعي واللاوعي معا، أي التصرف في حقل" [1]. وحالات التذكر تكون في علم النفس شفهيا، أي عملا سريريا؛ وقد تكون عملا كتابيا، عبر كتابة سيرة ذاتية تكشف المستور وتعالج الألم. والقاسم المشترك بين العلاج النفسي التحليلي عبر علم النفس، والعلاج النفسي الكتابي عبر كتابة السير الذاتية هو أن كليهما يرتكزان على القدرة التذكرية. والقدرة التذكرية في علم النفس: " تحتاج لفترة من الاستبصار التي كثيرا ما تطول. ومما يزيد في اطالة هذه الفترة اضطرار المريض الى البوح بذكريات ذات طابع حميم أمام شخص آخر هو المحلل مما يستدعي أولويات الدفاع لدى المريض وهكذا، تحدث اعاقة تدافع الذكريات، وتداعي الأفكار، حتى تصل فترة العلاج التحليلي الى عدة سنوات"[2].

استشهد غرين في سيرته الذاتية بقول لعالم النفس ريلكي يعرّف علم النفس بأنه:" أساسي لمساعدتي، يساعدك مرة وللأبد، وليجعل ذاتك واضحة وجلية في يوم من الأيام، هو أفضل بكثير من الفوضى التي تعيشها الآن"[3]. على هذا، فان التحليل النفسي يريح ويضع الأشياء في أماكنها. والسؤال هنا، هل يستطيع المرء ان يقوم بنفسه مقام المحلل النفسي، أي عبر كتابة مشاكلاته النفسية في سيرة ذاتية سواء استخدم فيها ضمير المتكلم أو ضمير الغائب كما فعل طه حسين في سيرته الذاتية غير المباشرة : الأيام؟

---

[1]- زيعور 25 .

[2]- محمد أحمد النابلسي. فرويد والتحليل النفسي الذاتي (بيروت : دار النهضة العربية، 1988) 7.

[3] - Greene. *A Sort of Life* 129.

اننا، في كلتا الحالين، نجد أن المريض، أو الراوي، يعود الى أحداث الماضي وأوقاتها وامكنتها. وفي السيرة الذاتية يتشكل دور وظيفي للمكان وللزمان، وهو يؤثر في طريقة تفكير الراوي ويرسم صورة المجتمع الذي يتفاعل معه. أما المكان، فله أهمية كبرى خاصة عند تركيز الراوي عليه فهو يساعده على توضيح الحدث وعلى ابراز وجهة نظره والصور التي انطبعت في ذاكرته. ويعتبر لحميداني أن الحديث عن مكان محدد "يفترض دائما توقفا زمنيا لسيرورة الحدث، ولهذا يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني"[1] . وهنا تكثر الوقفات الوصفية التي وجدناها في سيرة شكري كما في سيرة غرين. والجدير بالذكر هنا أن المكان في السير الذاتية واقعي وحقيقي ومنطبع في الذاكرة. انه الاناء الضيق الذي يسكب فيه الكاتب ما في ذاكرته ليطفو برونق الفكرة واحساس التجربة.

يصف شكري في "الخبز الحافي" مدينته طنجة، لكنه لا يصفها كما هي بل يجملها. وفي تعليق له على ذلك، روى شكري طرفة حصلت عندما زاره صديقه الياباني المستشرق نوتاهارا مع زوجته في طنجة ليعاين الأماكن التي تجري فيها أحداث الكتاب للحصول على ترجمة أدق وأوضح. يقول شكري أنهم بدأوا من تطوان الى طنجة وأن : " الصهريج هو أول ما شاهدناه. أخذ له صورا عديدة من جميع جوانبه. عندما انتهى قال مبتسما: (موجها حديثه لشكري) في كتابك تصف هذا الصهريج، وما حوله، بكثير من الجمال، مع أنه ليس كذلك ، ولا يدل على أنه كان جميلا "[2] . أما شكري، فقد كان رده لافتا ومتقنا اذ أجاب: " هذه هي مهمة الفن ، أن نجمل الحياة حتى في أقبح صورها. ان هذا

---

[1]- حميد لحمداني. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي الطبعة الثالثة (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، 2000) 63.

[2]- شكري، الشطار 94.

الصهريج انطبع في ذهن طفولتي جميلا ولا بد لي من أن أستعيده بنفس الانطباع حتى ولو كان بركة من الوحل. ثم انني كنت بعيدا عنه زمنيا ومكانيا عندما وصفته "[1].

والمكان عند شكري له مكانة خاصة خصوصا أنه متعلق بثلاث مدن محددة أولها طنجة، المدينة التي عكست تجربته مع أبشع وجوه الشر، وحيث اختبر الجنس والسرقة والتهريب. ثانيا تطوان، حيث اختبر حياة الخمرة والنساء وحشيشة الكيف. وانتهى به الأمر بأفضل مما بدأ حين انتقل الى مدينة العرائش؛ هناك تعلم الكتابة والقراءة، فتحدى الجهل والأمية وتحدى ذاته بالتغيير والطموح والنضج في التفكير. وها هو يحكم على الزمن ويقيّم الواقع بلغة المفكر المتعب، يقطر ألم الندم والغربة والاستسلام في وطن البائسين أمثاله، هؤلاء الذين يحاصرهم رماد الزمن الأغبر: " انه العيش في زمن الأخطاء. لقد تلوثت بليل الشارع. حتى مجانينه اللطفاء تصومعوا. صاروا عقلاء! استطالت لحاهم! ليس بدعة في حياتهم لكنها استسلام.. زمن لم أر فيه الشروق، وطراوة الصباح، ونداوته"[2] .

اما المكان عند غرين فمتعدد الهويات والاتجاهات. فهو يبدأ سيرته الذاتية منذ سن مبكرة، ويبحث عن قصاصات الذكريات بين دفاتر ذاكرة أخيه الذي يمده ببعض التفاصيل عن حدث غفلت عنه ذاكرته، اذ كان في الخامسة من عمره وهو في طريقه الى المدرسة. كان هناك شخص يحبس نفسه في أحد أكواخ الفقراء وأراد أن يقطع لسانه؛ لم يعد غرين يذكر ان كان هذا الشخص قد قطع لسانه بالفعل أم لا. يقول: "لقد خانتني ذاكرتي بالفعل اذ أن أخي راسلني مؤكدا أني قد شاهدت الرجل يقطع لسانه عبر النافذة، اذ لم تردعني المربية ، ولكن الرجل قام بفعلته هذه"[3]. تنقل غرين بين الكثير من البلدان والمناطق ولكنه ركز في الجزء الأول من سيرته على البيت والمدرسة وبيت المحلل النفسي. والقاسم

---

[1]- شكري، الشطار 94.
[2]- شكري، الشطار137

[3] - Graham, *A Sort of Life* 18

المشترك بين غرين وشكري هو تلك الوقفات الوصفية التي تلعب دورا رئيسيا في سياق السيرة الذاتية .

والوقف، وصفيا كان أم تحليليا، متعلق بالمكان والزمان . فوصف الأمكنة ليس متتاليا بحيث يتنقل بين أماكن الأحداث التي تتغير بالضرورة حسب المنظور الذي يرى منه الحدث. فتغيير الأحداث :"وتطورها يفترض تعددية الأمكنة واتساعها أو تقلصها.. لذلك، ان صورة المكان الواحد تتنوع حسب زاوية النظر التي يلتقط منها" [1]. يشرح زيتوني معنى الوقف في العمل الروائي بأنه: " يتمثل بوجود خطاب لا يشغل أي جزء من زمن الحكاية. والوقف لا يصور حدثا، لأن الحدث يرتبط دائما بالزمن، بل يرافق التعليقات التي يقحمها المؤلف في السرد"[2] .

فحين يتوقف شكري عن سرد الأحداث، يجمد الحدث في الزمن الذي حصل فيه ، ليصف ويعلق ويحلل، وما أكثر هذه الوقفات في الجزء الثاني من سيرته الذاتية. مثال على ذلك، حين وصف الكسيح الذي يساعد التلاميذ على حل واجباتهم المدرسية، والمكان المتسخ والمقزز الذي كان ينام فيه والشيوخ المعتوهين والمشوهين. هذا الوصف يستغرق نحو فصل كامل من السيرة ومما لا شك فيه، انها وقفات تساعد على بناء فكرة النص وتدفع بالقارىء الى الدخول في البيئة الموصوفة ليصبح في لحظة من لحظات القراءة جزءا منها. وفي الجزء الثاني من سيرة غرين، نراه يتوقف كل هنيهة ليحلل ويفسر، وبالتالي ليشرك القارىء في التجربة. والمشترك بين شكري وغرين هو تلك الوقفات القصيرة المتكررة التي تجمد النص لبرهة، كقول شكري : " فكرت" [3] ، وقول غرين: "ضائع"[1] . وهذه لغة

---

[1]- حميد لحمداني. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي الطبعة الثالثة (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ، 2000) 63.

[2]- زيتوني 175.

[3]- الكلمة مكررة في الصفحات التالية من كتاب شكري الخبز الحافي :43، 143، 168، 185، وفي الصفحات التالية من كتابه الشطار : 108، 115، 207.

تعكس اضطراب الكاتب وعدم استقراره، كما تؤكد انفعاله وعدم ثقته بمن حوله. انها وقفات تأمل ذاتي ومناجاة صامتة لزمن استحال فيه التفكير والتأمل والتروي.

ومما لا شك فيه، ان الوقفات تتمثل أيضا بتلك الجمل والعبارات القصيرة . مثال على ذلك قول غرين: "الهروب مرة أخرى"[2] ، " السنون مضت"[3] ، " كنت غاضبا"[4] ، " كان ذلك تاريخا ماضيا"[5]. كما تكثر الجمل القصيرة عند شكري والاكتفاء بتعليقات شخصية معبرة حتى تكاد تصبغ سيرته بجزئيها وتصبح الأسلوب المقصود لزيادة سرعة القص كأن يقول:" شممتها"[6]، " ضربة قوية"[7] ، "يتقافزون"[8]. وهذه الوقفات توقف لهاث الزمن المتأرجح بين الحدث المسترجع والحدث المنقول، أي أن هناك مستويات زمنية مختلفة تتراوح بين زمن الماضي المستعاد، أي زمن الأحداث، وزمن الكتابة الحاضر. ويعلق رووكي على أثر الزمان في السيرة بقوله: "ان السيرة ترتبط بالوعي وبالزمان وبادراكنا المتغير له طوال تجربة الحياة التي نعيشها؛ فكل مرحلة من العمر تتميز بادراك خاص للزمان ينعكس في نظرة الانسان لمراحل العمر الأخرى"[9] .

والترتيب الزمني قد يكون متوالياً وقد يكون متقطعا، ولكن المهم هو حالة وعي الكاتب للتجربة المستذكرة، لأن الكاتب يهرب الى ماضيه للتخلص من حاضره وربما يلجأ الى ماضيه لاثبات نضجه وتغيره وتفوقه على نفسه في الزمن الماضي. والمشكلة تكمن في عجز الانسان،أي إنسان، وليس الكاتب فقط، عن فصل الزمن عن الذات واعادة ترتيبه.

---

[1] - Greene, *Ways of Escape* 113
[2] -Greene, *Ways of Escape15.*
[3] -Greene, 249.
[4] -Greene, 253.
[5] -Greene, 255.

[6]- شكري ، الشطار 8 .
[7]- شكري ، الشطار109.
[8]- شكري ، الشطار 12.
[9]- تيتز رووكي ، في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية ترجمة طلعت الشايب ، الطبعة الأولى (المجلس الأعلى للثقافة، 2002) 11.

يقول جورج ماي: " حين يأخذ كاتب السيرة الذاتية في الكتابة تتداعى الذكريات في ذهنه تداعيا لا يتقيد بأي ترتيب زمني. فان هو دوّن تلك الذكريات على علاتها حرّف الترتيب الذي جرت عليه في الواقع" [1]. فالبنية الزمنية تمتد على مسافة طويلة تسقط الحاضر على زمن الأحداث لأن الكاتب يتعب من الانكباب على نبش الخفايا والمستترات والأحداث التي تركت آثارا في الأعماق، فينتقل من لحظة الكتابة الى لحظة التجربة: " ان كاتب السيرة الذاتية يقطع مسار الزمن عكسا، فينطلق من حاضر التدوين ليبلغ ماضي التجربة الذي ينبغي أن يكون موضوع ذلك التدوين " [2]. وهذه المقولة تنطبق على شكري وغرين سوية.

لعلم النفس رأي ايجابي في استحضار المريض أحداثا من الماضي يختارها وهو مستلق على كرسي الاعتراف. يعترف علم النفس السريري للزمن بمزايا علاجية شافية تهدىء كل مرحلة زمنية مضطربة . فيصبح الحدث في الزمن الحاضر، زمن استذكاره، أضعف منه لحظة الانفعال، لحظة وقوعه الفعلي في الزمن الماضي إذ يحل الصفاء الذهني و" رصانة التفكير محل الانفعال بالتجربة. ان هذا التفكير هو الذي يتيح لنا بفضل تأخره عن زمن التجربة أن نعيد النظام الى هذا الخليط المضطرب القلق الذي يصبح بمرور الزمن هادئا صافيا"[3] .

فرغم صخب الحدث، نجد شكري يصف واقعة قتل أخيه على يد أبيه، بهدوء واتزان. ان الزمن وحده يطوي الجراح ويبلسم الآلام مهما صعبت علينا الحياة وأثقلتنا بأوجاعها. بهذا الزمن، يبدأ شكري سطوره الأولى ليقف وجها لوجه مع صدمة الحياة وقسوة الموت التعسفي . وبذكرها، يكشف أوراقه المستورة ويسفر عن أخطاء مجتمع كان هو الجزء المقاوم فيه رغم رغبته الجمة في الرحيل والخلاص عبر الموت الذي أسكت جوع

---

[1]- جورج ماي. السيرة الذاتية ترجمة محمد القاضي وعبدالله صولة (تونس، بيت الحكمة، 1994) 83.
[2]- ماي 177.
[3]- ماي 163.

أخيه للأبد وجعله ملاكا يحسده شكري على ملائكيته " أخي صار ملاكا. وأنا؟ سأكون شيطانا ، هذا لا ريب فيه . الصغار اذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين. لقد فاتني أن أكون ملاكا"[1] . ويكرر الأمنية ولكن بحذف كلمة "ملاكا" ، ليستبدلها بكلمة " واحدا منهم " وهو يتحدث عن التلاميذ والأطفال: " فاتني أن أكون واحدا منهم"[2] . عقدة شكري هي مصيبة الماضي في حياة شكري، انه كبر دون أن يمر بمرحلة الطفولة! وأي عمر هذا حين تسلب الطفولة وتغتصب البراءة؟ وأي ذكريات يحتضنها الحاضر في ذاكرة إنسان يسترجع شريط ذكريات تتأسف على روح لم تكن سوى سجينة جسد انسان :" لست حجرا. ربما سأظل أنزف في هوية البئر حتى أهمد . الأفظع ألا أموت. لست حجرا" [3].

وبهذا يكون قد توأم شكري الحياة بالموت كما فعل غرين وهو يحي الماضي بتذكره ووصف انفعالاته وهو بعد طفل سلبت منه طفولته التي صبغتها قسوة الحياة بلون الحنين الى الرحمة والعفوية ، طفولة تملكت فيها الوحدة حيث برودة حضن الأم وفقدان حضن الأب رغم وجوده، فكانت طفولة يتيمة بائسة، تفتقد للسعادة : "اللاسعادة عند الطفل تتراكم لأنه لم يكن يرى نهاية لذاك النفق المظلم .. اللاسعادة كانت روتينا يوميا " [4].

هذا ما جعل غرين دائم البحث عن سبيل للهروب من الحياة عبر أذيته المتكررة لنفسه كمحاولته "شق رجله بسكين محاولا الانتحار، وتناوله سائلا ظن أنه مسموم، وابتلاعه عشرين حبة من الاسبرين"[5]. ورغم الاختلاف الدقيق بين ظروف غرين وظروف شكري، نجد أن الاحباط والتوق الى الموت والأزمات النفسية المتراكمة قواسم مشتركة بينهما. كما أنهما يتشابهان في التطور الذي طرأ على شخصيتيهما منذ بداية الجزء الأول

---

[1]- شكري، الخبز الحافي 228.
[2]- شكري ، الشطار 21
[3]- شكري، الشطار 13.

[4] - Greene, *A Sort of Life* 80.
[5] - Greene, *A Sort of Life* 88.

وحتى نهاية الجزء الثاني من سيرتيهما. ومما لا شك فيه أن التغيير الزمني عند شكري والتحرر من زمن القهر والجوع والهجرة والجهل والترحال، الى زمن الاستقرار والتعلم والتحرر من قيود العائلة.

ولكن النفس حين تتعرى، تفعل ذلك أمام نفسها قبل الآخرين. ولكن فكرة التعري تكاد تكون شبه مستحيلة اذ انها في رأي ماهر حسين فهمي " بعيدة عن عالم المثل، وبقدر اقتراب السيرة الذاتية من هذا المثال البعيد، تكون قيمتها الموضوعية" [1] . ومن الصعب جدا كتابة السيرة الذاتية بأحداثها كما حصلت دون ترميم العيوب فيها مهما كانت الكتابة صادقة وعفوية. وتكاد التعرية الخالصة أن تكون شبه مستحيلة لأن السيرة لا تتعلق فقط بقول الحقيقة: " والا لأمكن لكل انسان يقوى على تعرية نفسه من كتابة سيرة ذاتية ناجحة ، فلا بد اذن من جانبين أصليين : جانب انساني، وجانب فني ، ويتجلى الجانب الانساني في عمق الصراع الداخلي والخارجي" [2] .

فالمحظورات يحددها المجتمع ، وتبين نسبيتها القيم التي تختلف من بيئة لأخرى. واختراقها يكون ضمن حدود معينة لأن الكشف عن بعضها قد يستر المهم منها وقد يعري الأهم في حالة من اللاوعي. فالى جانب الرقابة الذاتية ، هناك الرقابة الاجتماعية التي تحظر اختراق حدود الحرية في التعبير لاعتبارات اجتماعية عديدة أهمها احترام خصوصيات الآخرين الذين يشكلون جزءا وفيرا من السيرة الذاتية الفردية. ويشدد أندريه مورا على ذلك بقوله: " نحمي أولئك الذين رافقونا أو ارتبطوا ارتباطا مباشرا بالأحداث من

---

[1]- ماهر حسن فهمي السيرة تاريخ وفن (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، 1970) 239 .
[2]- فهمي 242.

خلال صلتهم بنا ، وحتى اذا نحن قررنا أن نقول كل شيء حول حياتنا، فنحن لا نملك الحق في أن نقرر أن نقول كل شيء عن حياة الآخرين" [1] .

ولكن في مقدمة سيرتها الذاتية، تعترف سيمون دو بوفوار باستحالة كتابة سيرة حياة دون الغوص في حياة الآخرين رغم اصرارها على احترام خصوصيات الآخر وفي دور البيئة والمجتمع في تسلسل الأحداث: "انه لمن المستحيل البحث في حياة الانسان الخاصة دون القاء الضوء على حياة الآخرين.. وليس هناك من كتاب يأخذ حقه في الفهم والاستيعاب دون عودة قارئه الى الظروف والمعطيات التي جعلته يبصر النور، ودون التفحص في حياة الكاتب ودراسة شخصيته"[2] . وحين يتذكر الكاتب سيرة حياته، لا بد من أن يسقط سهوا بعض الشخصيات التي لها علاقة بطريقة أو باخرى بتطور الأحداث. ويرى غرين أن ستين عاما مضت تحمل في طياتها الكثير من الوجوه والشخصيات والأحداث المميزة التي لا يذكر منها سوى ما ذكره في الكتاب وان سقط سهواً أياً من الأحداث والشخصيات، فهذا لأمر طبيعي نسبة للزمن الطويل الذي صار من الماضي.

والذاكرة تجمع كل ما تدركه وتضعه بتصرف وعي الزمن الحاضر ولا حرج في تذكر أي من الأحداث التي مرت لأن الأحاسيس التي رافقت الأحداث كانت صادقة، و"عملية نبش الماضي ليست عملا مخزيا.. ولا حرج في احياء الزمن الماضي بأخطائه وهفواته ومبالغاته " [3] ، لأنها تحقق لكاتبها التوافق والاتزان النفسي من خلال اعادة حساباته مع نفسه ومع الآخرين. وهنا تتوضح لنا ضرورة افصاح الكاتب عن غايته من كتابة سيرته الذاتية واستعادة حياته الماضية أمام الملأ كما فعل الكثير من كتاب السيرة. فيتحدث عواد في

---

[1]- أندريه مورا، فن التراجم والسير الذاتية ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش (القاهرة، المكتبة المصرية العامة للكتاب، 1997) 106.

[2]- Simon De Beauvoir, *The Prime of Life*. Translated by Peter Green (Cleveland and New York: The world publishing company, 1960) 10.

[3] - Greene, *Ways of Escape* 12.

مقدمة سيرته الذاتية عن غايته بطريقة غير مباشرة، فيقول: " بالكلمة أحيا مرتين. أسويها من جديد. أخلقها خلقا ثانيا. أثبت الزمان في المكان. ألحق باللحظة الهاربة فأكمشها وأعلقها على الحائط كالمرآة وأنظر الى نفسي فيها. أبرز فيها نفسي وأتحدى الفناء"[1] .

أما ميخائيل نعيمة، الذي يعتبر أن "الاقدام على كتابة السيرة الذاتية انما هو مغامرة من أكبر المغامرات" [2]، فيفصح عن أربع غايات لكتابة سيرته: أولها اعادة جمع سنوات طويلة من الخبرة والتجارب. والثانية هي رغبته الجمة في أن يعيش حياته مرتين وبذلك يحصل على فرصة اعادة حساباته مع نفسه ومع الآخرين. والثالثة هي اللذة التي يلاقيها الانسان حين يتعرى من جميع أسراره ومكنونات حياته السرية الا ما يعتبره قدس الأقداس: " انها اللذة التي يلاقيها الانسان اذا هو تعرى أمام اخوانه الناس من جميع أسراره وأوزاره ، فبات وكأنه بيت من زجاج - كل ما فيه مكشوف للعيان، الا ما كان منه أبعد وأعمق من متناول أبصار الناس وأفكارهم، ذلك وحده يبقى له بمثابة قدس أقداسه - لا يدخله أحد غيره"[3]. والرابعة هي أن يفسح للقارىء مجالا لاستنتاج ما استنتجه هو من خبرته.

واذا كان الانسان جزءا لا يتجزأ من مجتمعه الذي يقرأه، فهو أيضا جزء لا يتجزأ من مجتمعه الذي يعيش فيه. فللبيئة أثر كبير في بناء الشخصية وتكوين خصائصها. كما قد تكون أحد الظروف التي ساعدت أو أعاقت مسار هذه الشخصية . لذلك نجد أن طفولة الكاتب تحتل مكانة متميزة في سيرته الذاتية بغض النظر عن موقفه منها أكان سلبا أم ايجابا. فمن تلك المرحلة يتخذ الكاتب اسلوبا معينا في معالجة المشاكل وفي تعاطيه مع الأحداث المستذكرة وفي بلورة شخصيته . " ولا ريب أن لمرحلة الطفولة أهميتها في حياة الأديب. وقد توقف بعض كتاب السيرة الذاتية طويلا عند مرحلة الطفولة، لاكتشاف الأنماط السلوكية

---

[1]- توفيق يوسف عواد ، حصاد العمر الطبعة الثانية (بيروت : مكتبة لبنان ،2001) 10.
[2]- نعيمة 10.
[3]- نعيمة 14.

منذ بداية تشكلها في طفولتهم الباكرة ، وتأثيرها في تحديد موقفهم من أنفسهم ، ومن المجتمع المحيط بهم"[1]. ففي هذه المرحلة يتداخل صراع السلطة الأبوية بصراع اثبات الذات. ولا تخلو هذه المرحلة أيضا من الشعور بالدونية تجاه الآخرين بما تختزنه الذات الانسانية من حساسية ورهافة حس وشفافية ، فتقمع الذات كل هذه الانفعالات وترميها في مخزن الذكريات.

[1]- بركات 100 .

الفصل الثاني

السلطة الأبوية أساس المشكلة

اذا ما تفحصنا سيرة شكري، نجد أن شعوره بالدونية رافق سيرته منذ سطورها الأولى: " مزابل المدينة أحسن من مزابل حينا . زبل النصارى أحسن من زبل المسلمين"[1] . لقد كان يتالم بصمت دفين ، ويقاوم بقوة مسلوبة حقيقة أنه من طبقة الفقراء الذين ينتظرون الاغنياء ليرموا بقاياهم في مزابل الفقراء التي هي موائد المحتاجين. حتى بين المقابر، هناك الغني والفقير، المسلم والنصراني، العربي والأوروبي[2] . " تألمت للقبور المنسية : تكسوها نباتات وحشية ، بعضها منهار . حتى هنا، في المقابر ، عندهم الأغنياء والفقراء"[3] . وشعور شكري بالدونية لم يكن فقط تجاه من هم أحسن حالا منه، بل حتى أطفال الحي يحسهم أفضل منه حالا: " بيني وبين أطفال الحي فوارق تجعلني أحس أني أقل منهم رغم أن بعضهم بائس مثلي"[4]. حتى في علاقته مع أستاذ الحساب عندما بدأ يتعلم، شعر بالدونية في كيفية معاملته ومعاملة رفاقه : " أنا لم تشملني رحمته وعنايته خارج المدرسة. لم يكن لي مكان قار أنام فيه . كنت أتبع خطى السكارى ، والحشاشين، وطوافي الليل. أجد لي دائما مكانا بينهم. لقد كانت لنا نفس الذكريات واللغة، لنا عالمنا ليلا ونهارا، في لعنتنا الجميلة "[5] . كان يشعر بانه مختلف عن الآخرين وبأن حياته غير حياتهم، لذلك قرر صراع البقاء وتحدي الظروف. الا أن الأزمات المتلاحقة ولدت لديه أزمات نفسية مهلكة.

هذا الصراع المستمر في الحياة يجعل المرء دائم البحث عن مكانة له في مجتمعه يثبت فيها لذاته كما للآخرين أهمية وجوده وسيطرته على مواقفه وظروفه. والشعور بالفشل في السيطرة على الظروف يولد في رأي أدلر شعورا بالدونية. يقول :" ان الانسان يسعى

---

[1]- شكري ، الخبز الحافي 10.

[2]- وضع الناشر تفسيرا في أسفل صفحة 10 من كتاب الخبز الحافي حاشية تقول أن عامة الناس في تلك الأيام كانت تسمي كل أوروبي نصرانيا، وتعتبر أن كل عربي يتكلم العربية مسلما. كلمة المسلمين هنا تعني المغاربة.

[3]- شكري ، الخبز الحافي 16.

[4]- شكري ، الخبز الحافي 18.

[5]- محمد شكري ، الشطار 38 .

لأن يفرض نفسه بطريقة ما أو أن يسيطر بشكل أو بآخر. وفشل الميل الى السيطرة عليه ، يؤدي الى ولادة الشعور بالدونية (بالنقص، بالسفلية، بالحطة). هذا الشعور هو كل شيء، أو هو الرئيسي، في علم النفس الفردي"[1] . هذا الشعور يزول باثبات الذات ونضوجها واشباعها مع مرور الزمن.

والشعور بالدونية هو حالة نفسية مرضية تسلخ صاحبها عن مجتمعه وتجعله في حالة عدم توازن مع الذات أولا، ومع الآخرين ثانيا مما يقود بالفرد الى البحث عن تعويض ما يقيم جسرا بينه وبين بيئته. والدقيق في هذه المسألة هو أن من يتولد لديه شعور بالدونية يعمل جاهدا على أن يتستر على هذا الشعور أمام الآخرين في حال وعيه لهذا الشعور، وينتج عن ذلك الاحساس بالغرور والادعاء بالفوقية . أما اذا لم يكن هناك وعي بهذا الشعور المكبوت فان الشعور الباطني ينتج ردات فعل غير بسيطة، لا بل معقدة، وفي كثير من الأحيان غير واضحة . وهنا تبدأ المشكلة النفسية حيث تفقد الذات ذاتيتها، وتبدأ رحلة المعاناة مع الآخرين من أجل اثبات الوجود أو من أجل حماية الذات ممن تعتبرهم الأقوى ، وبالتالي الأخطر عليها. فقد يتولد لدى المرء شعور بأنه غير مرغوب فيه كما هي الحال عند محمد شكري، وقد يشعر آخر بالنقص والرغبة بالاستقلالية كما هي الحال عند غراهام غرين. ينتج عن ذلك الشعور بالوحدة والانعزال .

مثل هذه القوقعة على الذات تولد أزمة نفسية تحتاج الى اتصال وثيق بين الأنا والذات للتحليل والتأمل والاستبطان، من أجل تبسيط هذه الأزمة والخلاص منها. وهذه هي مهمة العلاج النفسي الذي هو فن من فنون التخفيف من الهموم الشخصية بواسطة التعبير الحر والتحليل المباشر للمشكلة التي حولها الزمن الى أزمة. هكذا حوّل شكري مشكلاته

---

[1]- ألفرد آدلر، فهم الطبيعة الانسانية (القاهرة : مكتبة دارالكلمة ، 2006) 108.

الى مجموعة من الأسئلة : " الأسئلة كثيرة، لكني لا أفهم معناها بوضوح. كل ما أعرفه هو أن الحياة يجب أن أحياها"[1] . واذا كان التواصل بين الأنا والذات هو عملية مصالحة وعلاج نفسي، فان كتابة السيرة الذاتية هي أحد فنون هذا التواصل، وهي بمثابة علاج نفسي وجرعة دواء تخترق حجاب الجسد لتصل حد السفور والتعري. انها الاتصال الذي "يحدث داخل عقل الفرد ويتضمن أفكاره وتجاربه ومدركاته" [2] .

ومع أن سيرة غراهام غرين الذاتية تختلف عن سيرة شكري في البيئة والعصر والزمان، فهي تعكس مرحلة الطفولة، ومرحلة الشباب، ومراحل النضج والوعي. وغرين يبوح في سيرته بذلك الشعور بالنقص والدونية الذي شكل له أزمة نفسية رافقته في أغلب مراحل حياته. لقد شكلت له سلطة والده في البيت كأب قوي ، وفي المدرسة كمدير وصاحب نفوذ وسلطة، أزمة نفسية عميقة . فقد بدأت مشاكله مع زملائه الطلبة بادىء بدء لشكهم فيه بأنه جاسوس عليهم لأبيه. ثم تصاعدت أزمته النفسية لتتولد لديه أحاسيس بالوحدة والانطواء. ولقد حكم غرين على تجربة أبيه مع تلاميذ المدرسة بالفشل. فقد أخذهم مرة الى السينما لحضور فيلم تثقيفي فاذا هذا الفيلم ملهاة طرزان . وكان يعظهم بأخلاقيات قديمة لا تتماشى مع جيلهم الجديد. ولقد حدس غرين بأن أيام المدرسة الأولى أنذرت ببداية حياة شاقة ومرهقة ، مليئة بالصراعات والعذابات والآلام : " وما تبقى يترتب، وعلى مضض، على خريطتي الذاتية للمدرسة: جزء منها مزين بالزهور، وجزء يخبىء القرميد الحديث بلون بيت الدمية البلاستيكي، حيث تبدأ تعاسة الحياة، والمقبرة المواجهة لصفوفنا، والمهملة منذ زمن، .."[3] . والوصف هنا ليس وصف تلميذ لمدرسته، بل يشبه وصف الأماكن الحزينة والمؤلمة. من هنا نجد أن أزمة غرين النفسية بدأت في المدرسة وتقع المسؤولية

---

[1]- شكري ، الخبز الحافي 109.
[2]- شرف 130.

[3]- Greene, *A Sort of Life* 14.

على الوالد الذي كان مديرا للمدرسة آنذاك. وهذا ما نستنتجه من أسلوب غرين في الكتابة عن أبيه والمدرسة وعلاقته بهما.

وكمدير للمدرسة، لم يكن باستطاعة الوالد فصل شخصية السلطة عن شخصيته. لقد أثر اجتماع السلطة الأكاديمية والسلطة الأبوية تأثيرا سلبيا على نفسية الولد أيام المدرسة، أوصله الى الطبيب النفسي. وأدى الى أزمات نفسية عصبية تسببت بمحاولات عديدة للانتحار. وفي وصفه لشخصية الوالد من منظار الولد ، يقول غرين :" الانفصال الحقيقي الحاصل كان بينه وبين أولاده. فكمدير للمدرسة، كان بعيدا جدا عنا، أكثر من بعد أمنا المتحفظة عنا. ففي فرصة عيد الفصح، كنا نسافر مع الوالدة والمربية على الدرجة الثالثة، ليلحق بنا بعد عدة أيام وحده، ولكن على الدرجة الثانية. وفي بعض الأحيان، كان يسافر وحده في عطلة الشتاء الى مصر أو الى فرنسا، أو الى ايطاليا مع زميل يدعى السيد جورج"[1]. واللافت في هذا الموضوع هو غياب صورة الأم غيابا فعليا، بمعنى أن وجودها هو شبه وجود لا يؤثر على مسرى الأحداث ولا على تطور الشخصية ونموها ان في سيرة شكري أو في سيرة غرين. يصف شكري أمه بأنها امرأة بائسة " تصلي من أجلي ، وتتضرع الى الله أن يحفظني من كل مكروه " [2] وذلك لأن صورة الأب في السيرتين هي صورة تقليدية لصاحب السلطة ، الذي يلعب الدور الأكبر في حياة الأولاد ضمن البيت الأسري. فالأب هو مركز القوة والطرف المتمرد عليه.

يرى الدكتور عقيل نوري أن "النظام الأبوي هو حقيقة طاغية تمثل جذرا ثقافيا قويا ومتينا في حياة أغلب المجتمعات ، بسيطها ومعقدها، قديمها وحديثها. كما أن العمق التاريخي للأبوية أكسبها معان نسبية تتباين من مجتمع لآخر ولكن بسياق اجرائي يمكننا

---

[1] - Greene, *A Sort of Life* 28.

[2]- شكري ، الشطار 14.

الذهاب الى أن هذا النظام يشير الى الهيمنة الذكورية في المجتمع وبالذات هيمنة الأب في النظام الأسري من جهة وتدني مكانة المرأة من جهة أخرى، وهذا المعنى يكاد يكون القاسم المشترك في كل أشكال الأنظمة الأبوية" [1] .

وصورة الأب الشرير والقاسي في سيرة محمد شكري جعلته يقتل مفهوم الأبوة وما يتضمنه هذا المفهوم من هيمنة وسلطة. يقول: " ان موت أبي في ذهني تم في اللحظة التي مات فيها أخي. اننا لا نقتل آباءنا بقدر ما يقتلون انفسهم فينا. ان الأب هو الذي يعجل أو يؤجل، يقصر أو يطيل موته في أبنائه. الموت درجات متفاوتة "[2] . والعلاقة بين شكري وأبيه مبنية على الكراهية والحقد، والصراع الأبدي الذي لا ينتهي مع تجرد الأب من سلطته الاجتماعية والمعنوية، بل تستمر الى زمن طويل، ربما لا ينتهي حتى بموت هذا الوالد الطاغية. ان شكري يعرف تماما أن سلطة أبيه بدأت تتلاشى مع مرور الزمن : " بدأ ينهزم عندما كبرنا" [3] ورغم ذلك نجده يشعر بخوف ضمني منه وان كان قد منع أباه من ضرب امه بتهديده له بضربه بالهاون. وفي تهديده له، لم يكن شكري يهدد فقط بل كان يقصد ذلك ، وقد رفع يد الهاون مرة بوجهه وبذلك يكون قد أخمد له عدوانيته وهزم له جبروته وكسر فيه طغيانه وجبروته: " ذات يوم أعياه الضرب (للوالد) فرفع القدر الذي يغلي فيه محلول السكر الذي يصنع به العسل ليبيعهفي سبتة، ولولا الجيران، الذين استغاثت بهم، لأفرغ المحتوى على رأسها. عندما جئت أمسكت مدقة الهاون وهددته بتهشيم رأسه ان هو عاد الى جنونه معها. خرج الى دار جارنا وانخرط في نوبة من البكاء وهو يردد " المسخوط يهددني بالقتل. يهددني بالمهراس. لو خنقته وهو صغير لتخلصت منه" "[4]

---

[1]- عقيل نوري ، " النظام الأبوي حقيقة دينية مطلقة" ، مجلة الجندول 25 (نوفمبر)، السنة الثالثة، 2005.
[2]- شكري ، الشطار 91.
[3]- شكري ، الشطار 113.
[4]- شكري، الشطار 114.

مع أن الوالدة في عائلة غرين، تمثل صورة المرأة المثقفة والأرستقراطية التي لا هم لديها سوى الاهتمام بأولادها والسهر على راحتهم ، فان حضورها كزوجة وأم حضور خجول جدا. فنراها في بداية السيرة الذاتية : " عندما كنا أطفالا، تعودنا الذهاب الى الفراش بين الساعة الخامسة والنصف والسادسة والنصف مساء، وذلك لكي نلعب مع أمنا . وما زلت أذكر الخوف الذي كان ينتابني من تلك القصص التي كانت تحكيها لنا عن بعض الأطفال الذين كان يرسلهم عمهم الماكر الى الغابة كي يقتلون، .. كنت أخافهم لأني كنت أخاف من البكاء "[1] . أما صورة الوالد الغائب بحنانه والحاضر برهبته وجبروته : " كان هناك كرسي يجلس عليها والدي في أوقات الفراغ ليدخن الغليون وينفخ الدخان على عناقيد العنب ليقتل بذلك الذباب الأخضر. كان هناك قوانين تمنعنا من ترك الباب مفتوحا " [2] . كان يجلس لنصف ساعة متواصلة بلا حراك أمام صديقه يفكر في لعبة الشطرنج أمامه، " لم يجرؤ أحد منا على مقاطعته، بينما هو منحن فوق هذه اللعبة المهمة، .." [3] .

وهذه الصورة تعبر عن مدى جدية الأب ورزانته، وفي الوقت نفسه، هي صورة تفتقد للعفوية في التعامل مع أفراد العائلة. أما الصورة الأخرى له، فهي تلك التي تبرز قسوته وعدم تسامحه، وتعامله مع أفراد أسرته بطريقة عدائية ووحشية اذ لا يتوانى عن ضربهم عقابا على غلطة ارتكبها أحدهم بسذاجة طفولية بريئة. وغرين يذكر في سيرته الذاتية أن والده كان يضربه الا أنه لا يتذكر بالفعل تلك الحوادث. ونحن هنا لا ندري اذا كان غرين لا يتذكر أيا من هذه الذكريات المكبوته في اللاوعي عنده، أو أن وعيه يرفض استذكار مثل هذه الحوادث أمامنا، حتى لا يعري نفسه أمام قارئه. هذه الأفعال تركت آثارها في ذاكرته : "في

---

[1] - Greene, *A Sort of Life* 18.
[2] - Greene, *A Sort of Life* 45.
[3] - Greene, *A Sort of Life* 90.

أحد الأيام، نعتّ الخادمة، العمة مود، بالحشرة. ولقد شكتني لوالدي الذي سحبني من تحت الطاولة وأجبرني على الاعتذار، رغم عدم رغبتي في ذلك، لعدم معرفتي بخطيئتي [1] .

واذا كانت السلطة الأبوية هي أساس المشكلة كما يتضح لنا، فان تحطيمها هو انتصار عليها واقرار بالشفاء منها . والواضح أن الإقرار بوجود المشكلة هو بداية الحل لها، ويبقى عليه تحليلها وتعليل أسبابها. وحينئذ يصبح الحديث عن المشكلة النفسية حلا جادا لها. لهذا، لا بد من الربط بين السلطة الأبوية والمرض النفسي. فهذا المرض هو نتيجة لهذه الأزمة. فمع تصاعد الأزمة، يتفاقم المرض، ومع ضمور الأزمة يتلاشى المرض.

ويفترض رووكي في حديثه عن الأسرة الأبوية أن " التناظر بين الأسرة والمجتمع مستمر.. وتمرد الطفل على سلطة الأب يفسر أنه دعوة لتمرد الكبار ضد نظام المجتمع القائم. وهناك في الأدب العربي والآداب الحديثة الأخرى تناظرات مماثلة بين مؤسسات صغيرة وكبيرة بحيث يتناظر دور الأب مع دور رئيس أو ديكتاتور"[2] . فصورة الأب في السير الذاتية على الأغلب هي صورة لشخصية قوية، طاغية، سلبية، وفاشلة . منها سيرة حنا مينه " المستنقع" وسيرة سالم المصري " بقايا صور" . ففي كلا السيرتين، نرى الأب السكير والمستهتر، والخائن والمستبد. كما أننا نجد شخصية الأب الغني والفاشل على حد سواء في " سجن العمر"، السيرة الذاتية لتوفيق الحكيم حيث يسعى الى التحرر من قيود المجتمع والبيئة. هذا السجن في حياة الحكيم لم يختلف كثيرا عن سجن فدوى طوقان في سيرتها الذاتية "رحلة جبلية.. رحلة صعبة".

ونجد أن بعض الشخصيات في السير الذاتية تظهر تمردها ضد سيطرة الأهل لأجل الحصول على الاستقلالية التامة عنهم كما حصل مع غرين . يقيم رووكي هذا الأمر

---

[1] - Greene, *A Sort of Life* 34.

[2]- رووكي 338 .

بأنه:"هدف انساني عام وهو الحرية. وبالنسبة الى الطفل، فان الحرية لا بد من السعي اليها بالتعاون والاحتكاك والصراع مع مؤسسة تأتي قبل كل المؤسسات الأخرى وهي الأسرة التي تحكم حياة أفرادها، وحيث أن بنية الأسرة العربية هي بنية أبوية، فان الحرية تصبح مرادفا للتحرر من سلطة الأب " [1] .

ولكن كل هذه الحقائق لا تنفي وجود صور ايجابية للأب في سير أخرى كما هي الحال عند عباس محمود العقاد، في سيرته الذاتية "أنا" التي كتب فيها عن عظمته وعبقريته، ووصف شخصيته المميزه وطبائعه الفذة. ويرد ذلك الى والده الذي أضاف الي شخصيته طبائع العظمة وصفات التفوق : " لقد ورثت عن أبي عمق الايمان والزهد في المال، وحب العزلة، والجد والصرامة والغضب للكرامة، وشدة المحاسبة للنفس، والاقبال على المطالعة"[2] . والواضح أن هذا يناهض أقوال شكري في أبيه وأثر البيئة، التي أتى منها، في شخصيته.

وكما هي الحال عند العقاد، نجد في سيرة غرين صورة اجلال لمفهوم الأبوة . فحتى في الصورة السلبية التي رسمها لوالده، نجد نقاطا ايجابية تكن للأب التقدير رغم أنه تسبب له بأزمة نفسية عصيبة. فهو لم يكن مقتنعا باهتمام أبيه له ، ولما يفعله حين كان طفلا، الا أنه اعترف في سيرته الذاتية أنه " فقط حين صار لدي أطفال أصبحت أدرك كم أن اهتمامه بأعمالي حقيقي، وحينئذ فقط اكتشفت حبا دفينا وأسفا عليه، وكل هذا يتراءى لي من زمن الى آخر في أحلامي " [3] . ولن نغفل هنا عن أهمية الأحلام ودورها الجذري في سيرة غرين الذاتية، والتي سنسهب بالحديث عنها في الفصل الرابع.

---

[1]- رروكي 340 .

[2]- عباس العقاد ، أنا (القاهرة : دار الهلال ، 1964) 40.

[3] -Greene, *A Sort of Life* 26.

واذا كان العقاد يتفق مع غرين في تقويم البيئة ومفهوم الأبوة وان بعد حين، أي عندما تقرر الذاكرة نبش أوراق الطفولة وتحليلها بمفهوم الحاضر ، باضافة خبرة الأيام والتجارب على مدى السنين الطويلة، فان طه حسين، ومن خلال سيرته الذاتية " الأيام"، بأجزائها الثلاثة، يقدم لنا صورة مختلفة عن الصورتين الآنفتين. لقد عاش طه حسين حياة صعبة ومعقدة، بدأت مع فقدانه لبصره في عمر صغير ضحية جهل البيئة التي عاش فيها ، واستغرقت فترة نضوجه وما صاحبها من المشاكل نتيجة ظروفه الصحية، وانتهت بعودته الى مسقط رأسه بصورة الدكتور طه حسين المتعلم والمقاوم لصعوبات الحياة. هذه الصعوبات جعلت منه انسانا ساخطا ومتمردا، ثائرا ومنتقدا، لاذعا وجارحا حتى تجاه من مد له يد العون ، كوالده ووالدته، اللذين اعتبر أنهما لم يكنا له مشاعر حب وحنان، بل مشاعر شفقة ورأفة : " لقد كان يحس من أمه الاهمال والغلظة رغم ما كان يحسه منها من رحمة، وكان يحس من أبيه شيئا من الاهمال والازدراء، رغم ما كان يحسه منه من رفق ولين " [1] . من هذا التحليل، نلاحظ المسافة الجسيمة بين الآباء والأبناء. فالطفل يترجم التصرفات الصغيرة ويعيها بالطريقة التي ينظر لها، أي من خلال حساسية الطفولة ،التي يصعب خداعها.

واذا كانت ظروف طه حسين في زمن الطفولة صعبة للغاية، فان ظروف غراهام غرين تكاد لا تقارن بظروف كثيرين ممن كتبوا سيرهم الذاتية، فقد كان أفضل منهم سواء من حيث جو العائلة، أو المستوى الاقتصادي . رغم ذلك، تبقى السلطة الأبوية عاملا يدفعنا الى الربط بينها وبين عقدة أوديب التي تحدث عنها فرويد في كتابه "الطوطم والحرام" . فقد تحدث غرين عن سوء علاقته بوالده ، وبالجفاء الذي لحق بعلاقتهما من جراء بعد الوالد

---

[1]- طه حسين ، الأيام الجزء الأول (القاهرة : دائرة المعارف ، 1966) 17.

وتمييز نفسه عن أفراد عائلته. ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن ذلك في الفصل الأول. وبوصفه ابن مدير المدرسة، لحقت به لعنة أزلية هي حضور أبيه الدائم في حياته وفي سطور كتاباته.

لم يكن غرين مسرورا من وجوده بين أفراد أسرته. فحساسيته المفرطة من قيود أبيه الأسرية امتدت الى أخيه. فالسلطة الأسرية المتمثلة بالأب هي انعكاس لقيود تمنع المرء من التمتع بحريته . واذا لعب الأخ دور الأب وحاول فرض سلطته، فهو حتما صورة له. وللأخ أو للأخت دور كبير في حياة اخوتهما، كما له/ لها أثر كبير في مسلكيتهم المستقبل. وهذا الدور يظهر في الأسرة العربية أكثر منه في الأسرة الغربية اذ أن : "التسلط الأسري ما هو الا مظهر من مظاهر التسلط السياسي في المجتمع العربي "[1]. والتسلط الأسري يمتد من الأب الى الابن باعتباره امتدادا لسلطة الأب في العائلة . بمعنى أن تبقى السلطة للذكور ويبقى المجتمع مجتمعا ذكوريا يتسلط على الاناث اللواتي يشكلن ركيزة هذه البيئة .

ولقد كان لديه أخ أكبر منه وكان يشاركه غرفة النوم. وكانت تتفاقم أحيانا مشاكلهما. الا أن غرين كان يتمنى الموت لأخيه وقد حاول قتله أكثر من مرة. وهو بالطبع لا يعي مسؤولية تفكيره، الا أنه شعر بذنبه عندما أصبح لديه طفل يشاركه غرفته كما كان يفعل أخوه في الصغر : " لا أتذكر بوضوح اذا كانت تلك هي المرة التي حاولت جاهدا قتل أخي ، وذلك بضربه بالمطرقة على رأسه . لكني أظن أن هذه الحادثة العنيفة تكررت عندما شاركته الغرفة حيث كنا نستيقظ كل يوم على شجار وجدال. اليوم، أشارك الغرفة مع "هيو"، طفلي، الذي يبكي في الليل ولا يدعني أنام بارتياح " [2] .

---

[1] أمل التميمي ، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي (المغرب : المركز الثقافي العربي ، 2005) 144.

[2] - Greene, *A Sort of Life*. 46.

وبعد العديد من محاولات الانتحار، غادر غرين مسكن سان - جونز الداخلي للطلبة وهو في الثالثة عشر من عمره، وعاد الى بيته ، فوجده بيتا جديدا، واكتشف الكثير من التفاصيل داخله لم يعرها في الماضي أي انتباه . نتج عن ذلك كله شعور بالغربة. كان يشعر، وهو في ذلك المسكن الداخلي كأنه ضيف غريب في بيته . كان دائما معزولا عن الآخرين ، يراقب من بعيد ولا يختلط بالأجواء. هذا الوضع جعل غرين يتخبط بمشاعره المشرذمة وأفكاره المشتتة، وأصبح ضحية المواقف المعقدة والصعبة : " ماذا لو لم يكن أبي مدير مدرسة؟ لقد كنت كابن الخائن في بلد مستعمر، أخي كان مثالا في المدرسة، وسيدا في البيت؛ بكلام آخر، لقد كان واحدا من شركاء الخائن . لقد كنت محاطا بقوى المقاومة، الا أني لم أستطع مشاركتهم دون خيانه أبي وأخي " [1] . ورغم سلبية مشاعره تجاه والده واتهامه له بعدم الاهتمام به، فهو يأبى أن يخونه أو يخون أخاه. هذا يدلنا على أهمية وفاعلية وجود الأب مهما اختلفت الظروف.

وفي سرد غرين لسيرته الذاتية بدءا من أيام الطفولة، يكشف الستر عن موضوع بالغ الأهمية، بالرغم من مروره عليه مرورا سريعا دون القاء الضوء عليه. فحين يستعيد ذكرياته عن الحفلات التي يكرر أكثر من مرة كرهه لها، يروي أن ضرب أبيه له كان يولد عنده نشوة جنسية لم تكن تزعجه أبدا : " لدي الاحساس بأن أبي كان يضربني. الا أنني لا أتذكر سوى حادثة واحدة من هذا القبيل في زمن لاحق، ربما لأنها توقظ في نفسي نشوة جنسية لذيذة "[2] . لم يعلق غرين بأكثر من هذه الجملة على الحدث الذي يحمل الكثير من المشاعر المكبوتة تجاه الأب، والتي جعلت العلاقة بينهما غامضة وغير مريحة.

---

[1]- Greene. *A Sort of Life*. 74.
[2] - Greene, *A Sort of Life* 34.

يعتبر الطبيب النفسي الأمريكي، أنطوني ستور، أن علاقة الولد بالأب يخالطها الكثير من المخاطر والحساسية. ويضيف أنه :" لا يمكن الإنكار أن للطفل رغبات شهوانية وتظهر عليه بوادر الجنسية البالغة في السلوك والخيال معا، .. ان انتهاك علاقة التحريم بين الولد والطفل (العلاقة الجنسية) ، معناها أن الطفل لن يتعرض فحسب لكافة المخاطر التي تنشأ عند حدوث علاقة جنسية بين طرفين لا تكافؤ بينهما اطلاقا من حيث السلطان والنفوذ وهي مخاطر التخويف والخديعة والارغام ، بل سيحرم كذلك من النمو والنضج فيترك المنزل ليستقل ويتعامل مع العالم الخارجي بطريقته "[1] . والبارز في سيرة غرين الذاتية أنه لم يتوافر لديه أي من التربية الجنسية أو العناية الأبوية ، وهذه نقطة مشتركة بين غرين ومحمد شكري.

وفرويد يولي الكثير من الاهتمام لهذا الموضوع الذي يجد فيه تحقيقا لما ذكره في "الطوطم والحرام" عن رغبة الولد في قتل الأب ثم الشعور بالذنب . فالولد يحب الأب ويحاول تقليده وأخذ مكانه، والأب يوقظ في الولد مشاعر الرجولة، وحين شعر غرين بالرغبة الجنسية لم تكن تجاه الأب مباشرة ، بل كان هناك احساس بالنضج والرجولة والبلوغ. وهذا الشعور اكتشفه من حالة التأثر بأبيه ، وان كان هذا الشعور هو نتيجة لتصرف وحشي يعكس تخلف بيئة بكاملها.

يعتبر فرويد ، من منظار التحليل النفسي، أن هذا التوجه نحو الأب بالذات ما هو الا: " التماهي وهو التجلي الأول للتعلق العاطفي بشخص آخر، ويلعب هذا التماهي دورا هاما في المراحل الأولى لتكون عقدة أوديب، حيث يبدي الصبي اهتماما كبيرا بوالده: يود أن

---

[1]- أنطوني ستور ، فن العلاج النفسي ترجمة الدكتور لطفي فطيم ، الطبعة الثانية (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1992) 70.

يكون ويصير ما هو عليه، وأن يحل محله على جميع الأصعدة "[1]. والجدير بالذكر هنا أن التماهي بالنسبة الى فرويد هو أساس لتكوين الشخصية الانسانية. واذا ما شكلت السلطة الأبوية أزمة نفسية، لا بد للمريض في هذه الحالة من البحث عن طرق تساعده على الشفاء والا فقدت حياته الطمأنينة النفسية ، وبقيت هذه الأزمة اشكالية بينه وبين بيئته لأنها مصدر قلق واضطراب. وهنا يأتي دور علم النفس في تحليل مراحل الطفولة وما ينتج عن دفع الرغبات المكبوتة في اللاوعي وتوصيلها الى الوعي ، وذلك لتحرير المريض من مسببات سلوكه المرضي.

أما لماذا مرحلة الطفولة؟ ربما لأن الصراع الاجتماعي والهامشية في المجتمع صنعت من هؤلاء "المرضى" كتابا ربطوا ظروفهم الصعبة بطفولتهم . والفقر كان موضوعا أساسيا في السير الذاتية : " ان أهم موضوع ركزت عليه كتابات السيرة الذاتية العربية في الطفولة هو موضوع الفقر؛ لأن الطفولة ارتبطت بالظروف الصعبة والقاسية التي يكون قد عاشها بعض الكتاب فآثروا التعبير عنها كمدخل لتفتح حواسهم عن العالم "[2] . أما عند فرويد، فالجواب هو تفسير لعقدة أوديب في الأسطورة اليونانية ، التي تروي قصة البطل أوديب، الذي تزوج أمه لرغبته المكبوتة بها؛ والذي قتل أباه، أيضا لرغبة مكبوتة في القضاء على الأب . لقد كانت لديه غيرة دفينة من الأب، ورغبة لاشعورية في التخلص منه. في الواقع، ان الولد قد لا يدرك هذه العقدة المكبوتة في اللاوعي عنده والا لكان قمعها. ودور التحليل النفسي هو كشف المستور والقاء الضوء على كل ما يستطيع المريض تذكره حتى يصار الى تحليله وتحرير المريض من أزمته النفسية.

---

[1]- سيغموند فزويد، علم النفس الجمعي وتحليل الأنا ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: دار الطليعة، 1983)92

[2]- رووكي 37.

وحتى الشعور بالدونية هو نتيجة لأحداث يربطها الزمن الماضي بالزمن الحاضر، ويخمرها في اللاوعي، حتى تبرز في قالب مرضي. والاعتراف بما يعيه الانسان من أخطاء ومشاعر وأزمات نفسية مكبوتة، هو " اعتراف بأمر يغلب على الناس انكاره وكتمانه، ولا يفهمون منه الا أنه كشف لخبيئة في النفس تشين صاحبها وتدعوه الى أن يخفيها " [1] . وحين يتجرأ هذا الانسان على كشف المستور وازالة الحجاب عن المكبوت يكون قد بدأ رحلة الاعتراف الذي يعتبره عباس العقاد " ضربا من الاستشفاء كعلاج الأمراض بالطب في العصر الحديث " [2] .

وشخصية الانسان تتأثر بالبيئة والناس حولها. كما أنها قد تعكس أفعال الآخرين عليها. ففدوى طوقان ، مثلا، تعتبر أن كل الأشخاص الذين ذكرتهم في سيرتها الذاتية بدءا من طفولتها " لعبوا دورهم في حياتي، ثم غابوا في طوايا الزمن " [3] . وهنا تبرز أهمية الأحداث والأشخاص في مرحلة الطفولة ، وأثرهم في وعي الشخصية لهذه المرحلة. لقد افتقرت طفولة طوقان للحب والحنان اذ أوكلت أمها مهمة تربيتها الى المربية سمرة، والأب لم يكن يتعامل مع أبنائه بتودد فلم يظهر لهم، انطلاقا مما ذكرته طوقان في سيرتها ، سوى القسوة والجفاء.

وهنا نجد طوقان خير دليل على تمثيل الطفل الذي يقع ضحية الدونية نتيجة سوء تصرف أهله معه. لقد تعذبت كثيرا بوجودها بين أفراد عائلتها حيث كانت مصدرا للسخرية والتهكم لاصابتها بداء جعلها دائمة الصفرة. فكانت تشعر بالدونية وبالمهانة حين كانت تلقب بالصفراء. لم تكن تستطيع الرد أو الدفاع عن نفسها، مما ولد لديها عقدة نقص رافقتها حتى تاريخ كتابة سطور سيرتها الذاتية. لقد كانت مستضعفة ومسيطر عليها تارة، وتارة رافضة

---

[1]- عبد الدايم 253.
[2]- العقاد 256.
[3]- فدوى طوقان ، رحلة جبلية رحلة صعبة الطبعة الثالثة (عمان : دار الشروق، ، 1988) 7.

ولكن بلا حول أو قوة : " كنت دائما عاجزة عن الدفاع عن نفسي ، فما يفترضه الآخرون هو الصحيح ، ولو كان خطأ ، أو هذا ما يجب أن أسلم به " [1] . والآخرون متمثلون بالأب، بالأخ، وحتى العم.

ومما زاد شعورها بالدونية هو شعورها بالنقص المادي والمعنوي تجاه الآخرين. فبالرغم من ثراء عائلتها، الا أنها كانت تتوق لشراء دمية أو ثوب جديد أو أي شيء ليس عندها منه . وقد ذكرت طوقان أكثر من مرة غيرتها من ابنة عمها التي كانت تحصل على كل ما تهوى طوقان أن يكون لديها. وهذا الأمر أسس للشعور بالكره تجاه هذه الفتاة منذ الصغر. فحين وقعت طوقان في الحب للمرة الأولى، وهو أمر مصنف من المحظورات في مجتمعها، واجهتها العائلة بالذم والاهانة لسوء تصرفها : " لو أن ما وقع لي ، كان قد وقع لابنة عمي شهيرة، لما علم أحد منا بالأمر، بل كان يعالج بسرية ، وكتمان محكم، أما وقد حدثت القصة لي، فلم يكن هناك بد من قرع الطبول ، والأجراس ، بين عيون ومسامع كل فرد في الدار ، حتى النساء المساعدات في الأعمال المنزلية " [2] .

ومن جديد وقعت طوقان في قبضة عقدة نفسية أدت بها الى التفكير مرارا في الانتحار حيث شعرت بعدم مساواتها بالآخرين وبدونيتها مقارنة بهم وخاصة اذا ما قارنت نفسها بابنة عمها. واحساسها بالنقص قربها أكثر من أمها التي ما لبثت أن أدركت القيود التي تفرضها عليها سلطة البيئة والعائلة. فصارت تشفق عليها وتشاركها همومها انطلاقا من الشعور المشترك بالظلم والاستبداد.

وغرين لم يسلم من الاستسلام للشعور بالدونية خارج البيت كما بداخله. لقد كان يفتقد الى الثقة بنفسه ، مما جعله يفقد الثقة بالآخرين. فاذا حصل على تنويه في المدرسة

---

[1]- طوقان 19.
[2]- طوقان 56.

يعتبره مجاملة من المدرس لأبيه، واذا ترفع من مرحلة لأخرى لم يزده ذلك احساسا بالثقة :" عندما كنت في الثانية عشرة من العمر، انتقلت الى أعلى صف في المرحلة المتوسطة، الا أني بقيت في أسفل الصف لفصل كامل وفقدت ثقتي بنفسي " [1] . واللافت هنا أن صورة الأب ليست سيئة ولكنها شكلت لديه حالة من الالغاء المعنوي لشخصيته. فحين يمارس الأب سلطته كأب، أي انه يفرض التحريم والتحليل، ويسنّ الأسس التي يجب أن يتبعها أفراد العائلة، يبدأ الولد بالرفض والتمرد والتملص من الرضوخ والتبعية. ويجد نفسه أمام خيارين: اما أن يتغير ويرضخ، وبذلك يلغي وجوده المعنوي وتصبح له شخصية تبعية، أو أن يتمرد ويعلن الثورة على المبادىء والأسس التي بناها ويبنيها الأب . والخطر في الخيار الثاني هو ردة فعل الأب التي قد تؤدي الى الغاء جسدي والذي، بدون أدنى شك، سبقه الغاء معنوي.

فبالرغم من أن صورة الأب تضمحل مع مرور الأيام ، فبعد أن يمثل للطفل دور القوة التي تحميه، يكبر هذا الطفل ويأخذ بالابتعاد من أجل اكمال صورته الشخصية المستقلة تماما عن الأب . ولكن قدرة الولد على تحمل غياب صورة الأب أو حتى الأم من حياته، وممارسة حياته الطبيعية بحرية تامة، هي قدرة نسبية . فأما أن يثق هذا الولد- الرجل برجولته واستقلاليته، فيعيش حريته بلا عقد يفرضها عليه خزان الذاكرة، أما أن يبقى الماضي ماثلا في الحاضر، فيخلف فيه الأزمات والمشاكل النفسية.

وفي سيرة طوقان نجد صورة الأب سلبية تماما : " فالأب هو صاحب الهيبة والسلطان المطلق في البيت، له كلمة مسموعة لا يمكن النقاش فيها. وفي حضرته، على المرأة أن تنسى وجود لفظة "لا" في اللغة ، الا في حين شهادة لا اله الا الله " [2] . وليس عجبا أن لا تحزن طوقان على أبيها يوم وافته المنية لأنها كانت تعتبر أن في موته بداية انطلاقها

---

[1] -Greene. *A Sort of Life* 64 .

[2]- طوقان 40.

للحياة ، واشعارا بحصولها على حريتها وحقوقها كانسان . أن شعور الولد بالحرية في غياب الأب ليس بالأمر الطبيعي حتى ولو كان الولد يحاول التعود على الاستقلالية التامة من أجل تحقيق الذات واثبات الوجود.

ولكن وجود الأب في حياة الولد يصبح سلطة غير مرغوب فيها حين تصبح تصرفات الأب سببا لالغاء وجود الولد معنويا أو ماديا. والحال عند طوقان كان معنويا. فتغييب وجودها المعنوي في المجتمع ، والغاء دورها الاجتماعي انعكس على شخصيتها سلبا وأثر في ثقتها بنفسها. لذلك، كان موت أبيها قضية تحرر وشفاء من حالة كبت وضغط وتوقا الى الحياة ذاتها.

وهذا ما لمسناه أيضا في سيرة أحمد أمين الذي عاش الالغاء المعنوي بسبب سوء تصرف أبيه تجاهه في طفولته، مما جعله يعيش زمن الكهولة وهو لم يتجاوز عمر المراهقة، فكانت النتيجة السلبية : "فشخت قبل الأوان، والطفل اذا تشايخ ، كالشيخ اذا تصابى، كلا المنظرين ثقيل بغيض، كمن يضحك في مأتم أو يبكي في عرس " [1] . لقد نقل لنا طفولة عابسة حزينة، فيها الكثير من القمع والسيطرة والاستبداد من قبل الأب الذي "رسم له منهجا دراسيا شديد الصرامة، ألزمه طوال الأسبوع ، وهو منهج يبدأ منذ فجر كل يوم، ولا ينتهي الا بعد العشاء، ولم يكن له راحة الا عصر يوم الخميس ويوم الجمعة من كل أسبوع ، وكان كثيرا ما يحرم من صبح يوم الجمعة لعمل واجبه المدرسي، أو القراءة مع أبيه ، حتى كان هذا الضغط الشديد ، مثارا لثورة الصبي الذي ضاق به أشد الضيق ولم يكد يطيقه " [2]

---

[1]- احمد أمين ، حياتي الطبعة الرابعة (القاهرة : مكتبة النهضة العربية المصرية، 1961) 58.
[2]- عبد الدايم 135.

فالعلاقة بين أمين وأبيه ليست علاقة طبيعية ، أي علاقة ابن بأبيه يكللها الحب والحنان والعاطفة. العلاقة هنا هي علاقة مرضية مطلقة. فهي تعبر عن أنانية الأب . فهو يتعامل بقسوة مع ابنه، ويفرض عليه نظاما صارما يفقد الولد حريته وشخصيته على حد سواء. فشخصية الأب القاسية عكست سلبيتها على نفسية الولد ، فألغت دوره الاجتماعي ، وولدت لديه شعورا بالحقد والكراهية، ومثلما أحست طوقان، حين فقدت أباها، كان الشعور بالحرية هو الشعور الطبيعي ، كان شعورها بالتحرر والارتياح هوردة فعل طبيعية للالغاء المعنوي الذي سببه سوء تصرف ابيها تجاهها، وان كان نتيجة جهل المجتمع والبيئة لكيفية التعاطي مع الفتاة وتمييزها سلبا. ولكن ماذا يحصل لو تبع هذا الالغاء المعنوي الغاء مادي؟

ونعود لشكري الذي شهد الالغاء المعنوي له ولاخوته وأمه، والالغاء المادي لأخيه الصغير بسبب سوء تصرف الأب الظالم والمستبد الذي اعتبر أن كونه والدا يجيز له التحكم بحياة أبنائه وبمصيرهم ، الى حد أن يقتلهم كما فعل بابنه عبد القادر - أخ محمد- حين كسر له عنقه ليضع حدا لبكائه وشكواه المستديمة من جوعه الأزلي : " أخي يبكي ، يتلوى ألما، يبكي الخبز. يصغرني. أبكي معه. أراه يمشي اليه (أبوه) . الوحش يمشي اليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه . استغيث في خيالي. وحش ! مجنون! امنعوه ! يلوي اللعين عنقه بعنف . أخي يتلوى. الدم يتدفق من فمه . أهرب خارج بيتنا تاركا اياه يسكت أمي باللكم والرفس . . ينتحب وينشق السعوط. عجيب : يقتل أخي ثم يبكيه "[1] .

---

[1]- شكري ، الخبز الحافي 12.

هذا هو الجو الذي تربى عليه شكري ، وهذا هو الوضع الاجتماعي الذي منه انبثقت شخصيته المتزعزعة، والمهددة أبدا من قبل الأب الشرس بالالغاء المادي والموت الأبدي بعد الالغاء المعنوي والتحطيم النفسي. وهذه هي صورة الأب الذي كان من المفترض أن يكون الملجأ والملاذ، مصدر الحب والاطمئنان ، والركن الذي عليه ترتكز علاقات العائلة المترابطة. ان هذه المأساة لم تولد في ذات شكري أزمة نفسية فحسب، بل انها جعلت منه شيطانا مطلقا. هذا الشيطان ظل يفكر في وسيلة يتخلص بها من كابوس اسمه الأب الذي كان يكسر ويحرق ويحطم كل ما يتعلق بشكري من أغراض وصور وحتى شهادات . كان شكري دائما يفكر في التخلص منه أينما كان : "في طريق عودتي الى دار التفرسيتي دخلت حانة في برودويل السانية وشربت كأسين من كونياك تري . دخنت باضطراب مفكرا في من لم أعرف بعد كيف أتخلص من وجوده في حياتي " [1] . هذا هو الشيطان الذي يفكر كالشياطين : " خامرتني فكرة شراء سكين والعودة اليه (الى أبيه) وطعنه ، أو تدبير وسيلة لاخلاء اخوتي من الكوخ واحراقه وهو نائم فيه " [2] .

وبدل الشعور بالانتماء، هناك شعور بالالغاء. والحق أن الذي يفكر في حرق بيته ، أو الكوخ الذي تربى فيه لا يشعر بانتماء اليه. انه حتما اجتاز مرحلة الغاء معنوي جعلته يضحي بكل الذكريات التي قد يحملها هذا البيت ، أو هذا الكوخ ، معه. والبيت يمثل وجودنا كبشر في هذا العالم . انه : " ركننا في هذا العالم ، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى " [3] . أما عند شكري ، فكان البيت المكان الذي واجه فيه ظلم الحياة وقسوتها، والموقع الذي منه حاول دائما الهروب الى موقع أكثر أمانا. كانت السلطة الأبوية تهديدا بالالغاء المادي

---

[1] - شكري ، الشطار 78.
[2] - شكري ، الشطار 78 .
[3] - غاستون باشلار ، جماليات المكان ترجمة غالب هلسا، الطبعة الخامسة (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ، 2000) 36.

والمعنوي بدأ مع قتل الأخ الأصغر، وانتهى بالغاء شكري المعنوي ورفسه وركله وضربه وطرده من البيت.

لم يشعر شكري يوما بانتماء الى البيت أو الى العائلة لعدم شعوره يوما بالدفء أو بالحنان أو بالحماية المادية أو المعنوية. والبيت يلجأ إليه المرء في ذكرياته : " بينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى ، ننخرط في ذلك الدفء الأصلي ، في تلك المادة لفردوسنا المادي . هذا هو المناخ الذي يعيش الانسان المحمي في داخله " [1] . فشكري يبحث طول سيرته الذاتية عن ذاته في أي مكان خارج البيت ، وبعيدا عن العائلة التي لم تكن تتمثل سوى بصورة الأم المكسورة والمحطمة التي وضعت بموتها تاريخا لانفصاله التام عن العائلة : " غادرت تطوان شاعرا أن حبلنا السري قد انقطع ، وأن جذوري من شجرة عائلتي قد تعفنت الى الأبد [2] . في الوقت الذي يجب أن تكون اللحمة بين الأولاد أقوى عند فقدان الأهل، نرى الانفصال الكلي التام وبداية المصالحة مع الذات.

ولكن، كيف يستحل الأب الغاء الوجود المعنوي أو المادي للولد ؟ ان غاية الآباء من حيث المبدأ هي مصلحة أولادهم، الا أن قسوة الحياة عليهم قد تنعكس في تصرفاتهم تجاه أولادهم. وقد يظلم الآباء أحيانا ، ويظن الأطفال فيهم سوءا عن قصد أو عن غير قصد كما حصل مع غرين حين تعبت نفسه كثيرا ، وكان معروفا عنه منذ طفولته بمحاولاته العديدة للانتحار. فاقترح أخوه عرضه على طبيب نفسي وهذا ما حصل. يروي غرين الحدث ويعبر عن دهشته لقبول أبيه للموضوع وكأن رفض أبيه لما قد يعود عليه بالصالح أمر عادي فجاء رد أبيه غير ما كان يتوقع : " كان أخي ، الذي شعر بالفخر للثقة المعطاة له (وهو الذي كان يكبرني بثلاث سنوات فقط ، وما زال في سنته الأولى في جامعة أوكسفورد) ،

---

[1]- باشلار 38.
[2]- شكري ، الشطار 203.

اقترح التحليل النفسي كحل ممكن، وأبي - الشيء المدهش في العام 1920 – أبدى الموافقة"[1] . وليس من الغرابة أن يبدي غرين دهشته من تفاعل أبيه مع خصوصية حياته اذ أن أبوه منذ البداية كان بعيدا جدا عن أولاده ، عن زوجته ، وعن كافة أفراد العائلة لا لكرهه لهم، بل لأرستقراطيته وأصول التربية الريفية الانكليزية الرصينة في مجتمعهم . وغرين الذي تحدث في الجزء الأول من سيرته الذاتية عن مدى قسوة أبيه وتشدده تجاهه وتجاه أخوته ، وعن سوء تصرف أبيه في المدرسة بحيث شك الأولاد في أنه جاسوس لأبيه، فنبذوه، وأحس هو بأن أباه وراء الغائه معنويا من المجتمع ؛ عاد فاعترف بدين أهله عليه:"ربما الى أن يصبح الانسان في السبعين، ويعيش الزمن المستعار، لن يكون هناك سنة شؤم كتلك التي بها تنتهي مرحلة التعلم ، وتأتي اللحظة الحاسمة للبحث عن العمل ، وتحمل مسؤولية المستقبل الشخصية . ان أهلي قد قدموا لي كل شيء ممكن أن يدين له ولد لأهله ، وربما أكثر " [2] .

ان تصرف الآباء عن قصد أو عن غير قصد ، يجد لدى الطفل مرآة تعكس الصورة، وتحفظ عن ظهر قلب ، وتكبت في الداخل، ولا تنسى. ان الطفولة اسفنجة تمتص كل ما يمر عليها وتشرب دون ارتواء مخزنة في جعبة الذاكرة الكثير مما ينعكس في الكبر، بأشكال مختلفة، نستطيع قراءتها أحيانا، وأحيانا أخرى لا نستطيع. وإن أي خلل في المشاعر والعواطف في زمن الطفولة قد يولد شعورا بالدونية مع مرور الوقت، وحين تدخل الحساسية إلى علاقة بأي سلطة تتسبب بأزمة نفسية كتلك التي رأيناها عند بعض كتاب السير الذاتية مثل غرين وشكري. كما أن لارتباط الطفل بشخصية الوالد وخضوعه لسلطته انعكاسات على تطوره النفسي بالرغم من تفاوت صورة الآباء من سيرة الى أخرى. فمن الأولاد من

---

[1]- Greene, *A Sort of Life* 93.
[2] - Greene, *A Sort of Life* 147.

كان يدين لأهله بالمعروف، ومنهم من يحقد لأن السلطة الأبوية كانت بمثابة الغاء معنوي ومادي له . في كل الحالات، ليست علاقة الآباء بالأبناء علاقة تملك . أما اذا أصبحت كذلك فلا بد للولد من البحث عن الحل عن طريق ردات الفعل، كالهروب اللاواعي، أو مواجهة الحقائق، الى أن يصل إلى مرحلة ادراك الواقع ومعرفة الذات للذات فيتمكن من الخروج من أزمة السلطة والشفاء من مشكلته.

ويبقى السؤال: كيف تكون ردة فعل الولد اذا تسببت سلطة الأب ، عن قصد أو عن غير قصد ، بالغاء معنوي أو مادي، أو كليهما معا ؟ وكيف يكتشفها؟ وهل يولد عنده شعور بالانتقام أم ينشأ عنده وعي وادراك للذات ولحقيقة الوجود؟

الفصل الثالث

ردود الفعل وادراك الذات

اذا كانت السيرة الذاتية هي ه نسخ ما في الذاكرة من مكنونات الذات ومكبوتاتها عبر استرجاع الماضي بدءا من الطفولة التي لها دور هام في بلورة الشخصية، مروراً بالعلاقة بالسلطة الأسرية التي غالباً ما يؤدي سوء استخدامها إلى أزمة أو حالة كبت تؤدي الى مرض لا شفاء منه بغير العلاج النفسي. والعلاج النفسي يبدأ بدراسة الأنا، وتحليل ما خفي في اللاوعي واستعادته الى دائرة الوعي بمساعدة آلية الاعتراف التي تختلف من طريقة الى أخرى. فعند المحلل النفسي، يكون الاعتراف وسيلة لكشف المشكلة، تمهيداً لتحليلها وتبسيطها ومواجهة المريض بها، لايجاد حل لها.

والاعتراف هو أحد أساليب الكشف عن أخطاء أو ذنوب يندم عليها صاحبها. فاذا ما صيغ هذا الاعتراف خطيا، كان سيرة ذاتية؛ واذا ما صيغ بالأسلوب الشفهي، كان بوحا. ولا شك أن قراءة الذات ليست بالأمر السهل خصوصا حين نسعى إلى كشف هذه الذات بمكنوناتها ومستوراتها أمام الملأ .

ولكن قراءة الذات والتعبير عن مكنوناتها يحتاجان إلى اللغة، لأن الفكر لاينفك عن اللغة، فهي مادته المعبرة عنه والتي تعطيه شكلا. لهذا، يحتاج الفرد الى اللغة من أجل التعبير، ومن أجل استبطان الذات وسبر محجوباتها.

يرى جورج ماي أنه : " لما كانت الكلمات اذا كتبت رسخت ، فان حياة الانسان اذا دونت سلمت من الموت . فكأن كاتب السيرة الذاتية يقر بقدرة اللغة على خلق الحياة من جديد

وبالتالي على تخليدها"[1] . فاللغة لا تتحد بالفكر وحسب ، بل انها أيضا تمثل الوجود الذي أعيدت الحياة اليه بعد عودته من اللاوعي.

والأهم من ذلك، حين يقرر الكاتب أن يحول مكونات ذهنه وما يجول في خاطره الى عبارات وألفاظ، يزول الحجاب، وتسفر المشاعر والرغبات، وتسقط الأقنعة، وتبدأ مرحلة المواجهة. والسيرة الذاتية : " تيسر لكاتبها أن يعيش حياته الداخلية والخارجية والعليا من خلال ذكرياته ؛ والكشف عن أسرار حياته الباطنية ؛ وتأمل ذاته العميقة ، بما فيها من ثراء داخلي، يمثل عالما أصغر "[2] . من هنا ، نستطيع أن نقرأ ردة فعل كاتب السيرة الذاتية على أي سلطة كانت السبب في خلق أزمة نفسية لديه. والمهم في سرد الأحداث، والمشاكل، والمكبوتات ، وردات الفعل ، هو ان الكثير منها لا يفهم الا بعد عرضه بوضوح .

أما بعد أن يطرح الموضوع بوضوح وجرأة ، يواجه الوعي ما كان قد خفي في اللاوعي، وتبدأ مرحلة العلاج النفسي. فلقد كان الكاتب نفسه غريبا عنها ولم يتعرف بها الا بمساعدة عملية تنشيط الذاكرة واستعادة أحداث لم يكن هو ذاته يعيرها أهمية كما لم يخطر بباله أن حدثا بسيطا أو شعورا تجاه أحد من أفراد العائلة مثلا قد يكون السبب في أزمة نفسية حملها معه لزمن طويل . وفي ذلك يرى المحاضر في علم النفس أنطوني ستور : " ان مقدارا كبيرا من الحديث الذي يدلي به المريض أثناء سير العلاج النفسي ، يتناول أشياء هو يعرفها لكن لم يسبق له أبدا أن عبر عنها بوضوح ، أشياء يمكن أن نصفها بأنها غائبة عن

---

[1]- ماي 168.
[2]- شرف 7 .

البال أو كما يقال على طرف اللسان، حيث يدرك المرء أنه يعرف الكلمة المعينة ولكنه غير قادر على استرجاعها تماما " [1] .

وحين تحضر الأشياء الغائبة، تتحرر من سجن النسيان ، وقيود الذوبان والانصهار في الأشياء الحاضرة. والأشياء التي تغيب هي الأكثر وجعا ولذلك تثقلنا آلامها وتتعبنا ، فيهرب منها وعينا بها. ونحن نعيها فقط في لحظات الشدة ، أو فقط حين نقرر المواجهة ونكتب : "لا أتعلق بالأحلام الا عندما يهزمني طموحي ، ولا أتذكر همومي الا عندما أجلس لأكتب " [2] .

اذا كانت هذه هي الحال عند شكري، فان غرين لا يختلف كثيرا حين يسترجع ذاته قبل أربعين سنة ويجد أنه غريب عن تلك الذات، كأنها ذات شخص آخر، فيقول : " لقد كانت تجربة لي أن أقرأ ماض كتب – ومن كتبه؟ بالطبع لست أنا . فالذات التي كتبت منذ أربعين سنة ليست هي نفسها اليوم ، وأنا أقرأ كتابي 'مكسيكو الأخرى' تماما كما يقرؤه الغريب . فأحداث كثيرة أستذكرها بصعوبة كتلك اللحظات في قصة قرأتها مرة حين كنت صغيرا"[3] .

والأمر المشترك بين الكثيرين من كتبة السيرة الذاتية هو أنه بعد ابراز المشكلة ، ومواجهة الحقائق - موضوع الصراع - تبقى المصالحة مع الذات هي الحل الجذري لغربة الذات عن ذاتها، ولتسلل الذكريات الى اللاوعي. لذلك، اذا عدنا الى قضية الالغاء المعنوي والمادي للولد بسبب سوء تصرف الأب ، نجد أن للولد ردة فعل من المستحيل كبتها أو تجاهلها. والكبت خطر على النفس ويخلف فيها آثارا سلبية. والشفاء لا يتم الا بالتفريج عن الكبت من خلال احضار الذكريات الى الوعي ، واستخراج المكبوت المتمثل بالصراع الداخلي المتربص في أعماق الشخصية.

---

[1]- ستور 26 .
[2]- شكري ، الشطار 167.

[3] - Greene, *Ways of Escape* 84.

أما لماذا تكبت الذكريات؟ يرد كلفن هال ذلك، استنادا على آراء فرويد ، الى سببين:" اما أن تكون الذكريات ذاتها مؤلمة ، أو أن تكون الذكرى مرتبطة بشيء مؤلم " [1] . واذا كانت كتابة السيرة الذاتية هي العلاج الذي به يتماثل المريض النفسي للشفاء، فان كشف المحجوب والسفور عن المكبوت في اللاوعي هو مهمة توازي مهمة الطبيب النفسي المعالج الذي يكتشف الكبت ويواجه به المريض.

والكبت يتكون ابان الطفولة نتيجة للضغط والسلطة والظلم و القمع لبعض أو لكثير من الرغبات الطفولية التي قد تكون بالغة الأهمية في هذه المرحلة الحساسة من العمر. وردود الفعل تتكون لحماية هذه الرغبات وللمحافظة على مساحة من الاستقلالية في الشخصية بدءا من وعي المرء لذاته . والكبت هو كبح الأفكار والمشاعر قبل أن تصل الى الوعي . ولكن هذه المشاعر تبقى مخزنة في العقل الباطن ومن المستحيل نسيانها ، انما امكانية تناسيها واردة. والردود على حالات الكبت والحرمان يستخدمها الانسان لحماية نفسه من السلطات التي تهدد حريته وحتى لحمايته من نفسه اذ يثور على تصرفاته، وينقلب على مبادئه ويتغير. والكبت : " قد يمنع شخصا من رؤية الأشياء بوضوح، أو يشوه شيئا يراه، أو يموه المعلومات الواردة من أعضاء الحس بغية حماية 'الأنا' من أن أمر خطير أو مثير للقلق. كذلك، يمارس الكبت نشاطه على ذكريات الصدمات النفسية أو على ذكريات تجارب مرتبطة بصدمات نفسية"[2] . والفريق الضعيف هو دائما العنصر الذي يبحث عن الحماية لأنه يكبت القلق والخوف في اللاوعي لديه ، وبذلك لا يستعيد الذكريات المتعلقة بالأحداث الحساسة في مراحل حياته الا بصدمات نفسية تحرره من عقدته المزمنة.

---

[1]- كلفن هال ، أصول علم النفس الفرويدي ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي ، الطبعة الثانية (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة العربية ، 1970) 60.

[2]- هال 102.

يشكل الولد، مع الأم، الجانب الآخر من التوازن العائلي. انه الحزام المشترك ولكن الضعيف، ضد أنواع السلطة ؛ انه الجانب المسالم المستسلم ، المستضعف والمستهان، والفريق الذي لا صوت له سوى صوت البكاء والصلاة والتهدئة . هذه الصورة تتكرر وتبرز بوضوح في السير الذاتية العربية أكثر منها في السير الأجنبية ، بل تكاد تكون نمط الحياة العربية الاجتماعية العامة . انها انعكاس للتقاليد السائدة : "ففي أغلب تلك القصص ، يجسد الأب التقاليد الاجتماعية ويمثلها تماما ؛ أما الأم ، من الناحية الأخرى، فهي الضحية الوحيدة، تماما كأولادها. فالأولاد، وخاصة الشبان منهم، تعطى لهم امكانية الثورة على هذا المجتمع، سرا أو جهرا ، كردة فعل على سوء تصرفات آبائهم ومجتمعاتهم . بمعنى آخر ، ثورة على بيئتهم" [1] .

وهذه الثورة ليست الا أحد ردود الفعل التي تظهر وان متأخرة على السلطة المختلفة التي مورست على المرء الذي شعر بالكبت والحرمان وعدم المساواة بالآخرين. وقد تكون ردة الفعل حالة من التعويض عن الالغاء المعنوي أو المادي السابق ، وهذا التعويض هو جزء من العلاج الذي يقود صاحبه الى الشفاء .

وردود الفعل تكون على شكل تصرفات فورية انفعالية تنزلق في الزمن الخبيث ، وتختبىء لفترة في حفرة اللاوعي وتنحجب عن الذاكرة الى أن يأتي زمن ما ومكان ما ، تتقن فيه الدور الذي تلعبه فيه. لذلك نجد أن ردود الفعل: " تشوه الواقع، وتجعل الشخصية صارمة ومفتقرة الى المرونة"[2] . وهكذا يعيش صاحب ردة الفعل أسير أفكاره وتصرفاته ، وربما يشعر بالذنب تجاه من فكر فيهم بالسوء، حتى وان ظلموه في حياته. وليس في ذلك

---

[1] - Hartmut Fahndrich. "Fathers and Husbands: Tyrants and Victims in Some Autobiographical and Semi-Autobiographical Works from the Arab World". *Love and Sexuality in Modern Arabic Literature.* Ed. Rodger Allen, Hilary Kilpatrick and Ed de Moor. (London: Saqi Books, 1995) 106-115.

[2]- هال 111.

مشكلة. المشكلة تبدأ حين تتحول ردة الفعل الى انتقام حيث يتصرف اللاوعي في المرء على حساب الوعي .

فعندما رفع شكري يد الهاون ليقتل أباه حين كان ينهال على أمه بالضرب ويدميها، لم يكن فقط يدافع عنها ، بل كان ينتقم لسنوات طويلة من العذاب والقهر والظلم والاستبداد. كان يهرب من ظلم البيت وأجواء الطغيان المادي والمعنوي، وينام في الشوارع وعلى الطرقات . وفي أيام الشتاء الباردة، كان ينام في ركن فرن ويستمتع منه كل يوم إلى صلوات الفجر الآتية من بعيد، وإلى بعض أغاني الطرب الرقيق. وذات يوم أيقظه رجل وأكد له أنه يعرفه ويعرف أباه ، ولكن شكري أنكر أباه وأنكر أي معرفة أوصلة قرابة بتلك العائلة ، وأعلن موت أبيه قبل أن يموت: "- من هو أبوك اذن؟ - مات . – مات؟ - نعم، مات منذ زمان. – ماذا كان اسمه؟ - لا أدري . كنت أعرف اسمه، لكني نسيته. كنت في بطن أمي عندما مات"[1] . فنسيان الاسم هنا هو ردة فعل واعية وعملية انتقام محسوبة، تعبر عن غضب شديد وألم نفسي . فحين يتمنى الولد الموت لأبيه في خياله وفي أحلامه آلاف المرات كما فعل شكري، لا تبقى علاقته به علاقة طبيعية. وحين يشكك الأب بأبوته لولده، تغيب العاطفة المستقرة والمشاعر العفوية التي تربطه به. فالانتقام ردة فعل طبيعية على علاقة غير سوية بين الولد والأب بغض النظر عن الظالم والمظلوم.

يلتقي شكري بأبيه في الشارع أمام رفاقه ويبدأ هذا يضربه ، فينهال عليه رفيقا شكري بالضرب ويحطمان عظامه، بينما الولد يتمتع بالمشهد من بعيد :" سمعته يصرخ ويئن ويستغيث . رأيته يغطي وجهه بيديه والدم يسيل من بين أصابعه بغزارة. وقفت بعيدا أنتظر نهاية المشهد. تمنيت لو أني أشاركهما في ضربه. لو كان في مكان خال من الناس

---

[1]- شكري ، الخبز الحافي 74 .

لشاركتهما، كان عزاء لي أن أراه يضرب على مرأى مني حتى يسيل دمه كما سال دمي كلما ضربني " [1] ، يصور هذا المشهد خلل العلاقة والاصرار على الانتقام . وحين نضج شكري وتحرر من عائلته، وأصبح يزورها فقط ارضاء لأمه، مرض أبوه ، فصار يهمله ويقلل من مكانته في البيت وينتقم منه على طريقته : " ارضاء لأمي، بست له رأسه دون أن نتكلم . الشقاء الذي نلته منه في طفولتي يناله مني في شيخوخته. لا مصالحة بيننا الى الأبد " [2] .

ولقد تبع ذلك ردة فعل عنيفة عليه حين أجاب أصحابه بأنه " يستحق أكثر مما حدث له " [3] ، فدهش الأصحاب خاصة حين علموا أن المضروب هو أبوه ، لا بل أكثر من ذلك، لقد نعته بأبشع الصفات : " نعم ، أبي، (أضفت) : انه يستحق أكثر مما فعلتماه له . انه كلب" [4] . ونصادف في أكثر من مكان نعوت عميقة المعنى وخطيرة الأبعاد ترمز الى أبيه في مكان آخر : " السابعة مساء . كوخ الشؤم لن ينام الا بعد ساعات " [5] . مثل هذا التدني في مستوى العلاقة بين الأب والولد لا نجده اطلاقا عند غرين الذي ظل الاحترام المتبادل أساس العلاقة بين الطرفين . وهذا يعود الى الفرق في المستوى الاجتماعي الذي عاشه كل من غرين وشكري. ففي حين أن شكري تربى بين المقابر وفي المزابل وبين أرجل الحيوانات وفي أحضان اللوطيين والسكارى والمهربين : " لقد عشت مع برارة الليل في الدروب الضيقة، والحظائر المغثية ، والخمارات الريبة "[6] . انه انسان عاش طفولة

---

[1]- شكري ، الخبز الحافي 75.
[2]- شكري ، الشطار 193.
[3]- شكري ، الخبز الحافي 75.
[4]- شكري ، الخبز الحافي 76.
[5]- شكري ، الخبز الحافي 117.
[6]- شكري ، الخبز الحافي 138.

استثنائية، وحياة استثنائية ، وحين تعلم وبدأ يكتب ويتغير لم يصدق ما أدركه : " ابن الكوخ والمزابل البشرية يكتب أدبا وينشر "[1] .

أما غرين، فقد عاش حياة ترف ورخاء ، فدخل المدارس وتعلم وتثقف ، ونال رعاية الأب والأم وان كان الأب بعيدا عن ولده نسبيا والأم ضعيفة ودورها ثانوي. لقد كان يتمتع بفرح الأعياد ويذهب أيام الآحاد الى الكنيسة للصلاة، وحين تعب نفسيا أرسلته العائلة الى الطبيب النفسي ليعالج وينال الرعاية المناسبة. واذا كان هناك من خلل في العلاقة بين غرين وأبيه فهي نتيجة لافتقار غرين للحب والحنان الأبوي، والصراحة التي كانت تطبع شخصية والده . لذا، تميزت علاقته بأبيه بالخوف والرهبة ، والشعور بالتوتر الدائم وعدم الاستقرار .

والخوف في لغة علم النفس هوشعور ناتج عن خطر حقيقي يتوقعه المرء في حالة الوعي فيثير في النفس التوتر والقلق والاضطراب . وهذا الشعور هو نتيجة لما كبته اللاوعي في زمن سابق دون ادراك الوعي. قد يكون خوفا من السلطة والسيطرة التي اختبرها المرء في طفولته ، فيستمر الشعور رفيقا في اللاوعي لفترة قد تطول ، الى أن يأتي محرك لهذا الحدث- الخوف في الوعي ، فيوقظه ويضعه موضع الحركة ويحرره . والهروب من الواقع هو أحد مظاهر الخوف اذ يعكس رفض الحقائق مهما بلغت درجة أهميتها أو عمق تأثيرها في النفس الانسانية.

أما في سيرة غرين فقلما يخلو فصل من البحث عن وسيلة للهروب من الحالة التي هو فيها ، والأمثلة كثيرة . فحين كان في سيري ليون ، وكما في أي مكان آخر ، لم يكن غرين يشعر بأي اكتفاء معنوي . كانت أيام حرب وعدم استقرار ، وكان يشعر بالخمول

---

[1]- شكري ، الخبز الحافي 108.

بالرغم من كل انجازاته الأدبية ، وكان يعلق على ذلك فيقول : " كان النقاد يتذمرون، وربما هم على حق ، بأن ما انتجته ليس مميزا لكنه غزير من حيث المادة . والغلطة الحقيقية، كما كتبت ، تقع في صدأ خمولي الطويل . وكل الأعمال التي قمت بها خلال فترة الحرب لم تكن حقيقية ؛ لقد كانت هروبا من الواقع والمسؤولية " [1] . والواقع أن غرين لم يشعر أن الأعمال التي قام بها في غضون أيام الحرب كانت هروبا أو شكلا من أشكال التهرب، بل ان كل أعماله كانت كذلك ، وباعترافه الشخصي في مقدمة سيرته الذاتية : " اني أرى الآن أن كل رحلاتي وكل أعمالي الكتابية كانت وسيلة للهروب "[2].

والهروب من الواقع والمسؤولية هو خوف من النفس وعلى النفس خصوصا عندما يصبح الانسان في مقتبل العمر ويبدأ خوفه من المستقبل. وهذا ما حصل مع غرين وهو في الخمسينات من عمره، تلك المرحلة التي وصفها بفترة القلق العظيم . عندها أيضا تملكه الشعور بالخوف، وانتابته رغبة بالهروب : " لقد كنت في مزاج يدفعني للهروب ، وكما أظن، مزاج يدفع بغالبية الرجال الذين هم في منتصف العمر ، وان شعرت به باكرا ، الهروب من الملل ، والهروب من اليأس " [3] .

وبسرعة النهاية ، يلخص غرين في سيرته الذاتية مسألة هروبه الدائمة على أن الكتابة مرساتها ومصدر طمأنينة له : " هكذا، بحثت عن هروبي المعتاد في مسرحيتي الثالثة ' الحبيب اللطيف ' – فقط لأجد حين أسدلت الستار الأخير أن المزاج المحبط قد قدم لها ما قدمه الجنون "[4] . فالبحث عن الجنون هنا لا يفسر على أنه غير عادي، انه شيء اعتيادي ولا وجود خارج وجوده . لكأن غرين يبحث عن هذا الهروب ليكمل به جزءا ناقصا

---

[1] - Greene, *Way of Escape* 123.
[2] - Greene, *Ways of Escape* 10.
[3] - Greene, *Ways of Escape* 145.
[4] - Greene, *Ways of Escape* 143.

في شخصيته ، وفي كل عمل ينجزه يبرر الانجاز بأنه هروب من شيء معين. حتى حين كتب القصص القصيرة، وصفها بأنها أسلوب آخر من الهروب : " انه هروب من العيش مع الشخصية لسنوات حتى النهاية " [1] . ثم يتابع ، ليخلص الى القول بأن قصصه جميعا : " هي مجموعة من أساليب للهروب من عالم الكتّاب جميعا " [2] . انه غرين الذي استشهد بقول أودن عن الهروب في مقدمة سيرته الذاتية : " ان حاجة الانسان الى الهروب تشبه تماما حاجته الى الطعام والنوم العميق " [3] .

فاعتراف ليلى العثمان في سيرتها الذاتية يمثل ردة فعلها العنيفة على قسوة أهلها عليها ، وخاصة على والدها، الذي أتى بزوجة جديدة ، فعاشت الابنة الخوف والاضطراب، ونقلت ملامح الطفولة القلقة والتعيسة على حبر خطته سيرتها الذاتية : " عشت في بيت بني على القسوة : زوجة أب ، و أخ كبير غير شقيق ، وزوجة أخ يضيق بها قاموس النساء الشريرات في الحكايات . قلوب لا تعرف الرحمة . أشعرتني بيتمي وهشاشة روحي المستلبة، كنت مجرد شيء تافه يكمل العدد ، ويستخدم آلة لتنفيذ الأوامر . صار البيت سجنا، فكانت المدرسة هي منفذي الى عالم آخر مختلف تماما " [4] .

كما برزت مظاهر الانتقام للذات بذرف الدموع والشفقة على الجسد المنهك من قسوة الضرب والانتهاك المادي . كما ان الهروب كان الحل التراتبي والدواء المؤقت ، ولكن الشافي ، لطفولة مستضعفة ومسلوبة الحق والحرية في الفرح الحياة : " كنت أهرب الى أقصى بقعة في السطح لائذة الى السكون . ظانة بعقلي الصغير أنني كلما ارتفعت استطعت أن أكون قريبة من الله . كان هذا الظن يريحني . يشعرني بالقناعة أنني فعلا قريبة . أذرف

---

[1] - Greene, *Ways of Escape* 283.
[2] - Greene, *Ways of Escape* 283.
[3] -Greene, *Ways of Escape* 10.
[4]- ليلى العثمان ، المحاكمة. مقطع من سيرة الواقع الطبعة الأولى (دمشق : دار المدى للثقافة والنشر ، 2000) 9.

دموعا ساخنة سخونة العصا التي جرحت جلدي ولونته بالكدمات الزرقاء . أذكرني في جلوسي وكأنني ساجدة بخشوعي الارادي الصادق . أبدأ أكلم الله بصوت خفيض . أبثه حبا غريبا وبجهالة الطفلة كنت - أعاتبه – أنه خصني بهذا الأب القاسي " [1] . والواضح هنا أن الصلاة والتقرب من الله هي أيضا أحد مظاهر الهروب من واقع فرضته حيثيات مجتمع على أحد أفراد أسرة ذكورية الطابع . أما نعتها لمعاتبة الله في طفولتها بالجهالة ، فهو حكم قاس على نفسها وانتقام لاواعي لطفولة لم تأخذ ما تستحقه.

والحال يختلف عند شكري الذي لم يستطع الهروب من طفولته المعذبة ولا من خوفه الأزلي من سلطة أبيه وبطشه . وكثيرا ما حاول التخلص المعنوي من وجوده ولم يفلح . فقد كان يدرك تماما أن أباه كابوس أبدي يتبعه حتى بعد أن يموت ، ومهما هرب منه يعود اليه:" ان شراسته معي لا تنتهي.قد تلاحقني حتى بعد موته" [2]. حتى أنه أعلن عن وفاته قبل أن يتوفى وأنكر وجوده أكثر من مرة ، ورضي بان يهان أمامه ولم يتدخل ؛ ورغم ذلك، لم يتحرر من وجوده في حياته. وعندما مات ، لم يذكر أن أباه هو الذي مات بل ان قارىء السيرة يستنتج ذلك من خلال تتابع الحوار : " أخبرني بموت الأب . - مات . - متى مات؟ منذ شهور . – لماذا لم تخبروني يوم موته ؟ - لأننا نعرف أنك لم تكن تحبه أبدا " [3]. وهو طبعا يعجز أن يقول " أبي" ، وهو بمفهومه المحصور بذاتيته ، يرد اعتباره وينتقم على طريقته بمستوى فهمه للأشياء . وهذا يعطي بعدا لشخصيته الانسانية . مع العلم أن العقاد يعتبر أن الانسان قد يتعرف بالكثيرين في حياته ويبقى عاجزا عن معرفة ذاته : " ان الانسان مهما حاول معرفة ذاته ، لن يعرفها معرفة تحقيق بل على وجه التقريب أو التخمين، لأن

---

[1]- العثمان 74.
[2]- شكري ، الشطار 93.
[3]- شكري ، الشطار 200.

الانسان لو عرف نفسه معرفة تحقيق لعرف كل شيء في الأرض وفي السماء . وفي الجهر وفي الخفاء ، ولم يكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء "[1] .

والأصعب هو حين يهرب الانسان ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم ، والى مكان يفترض أن يهرب منه لا اليه ، كما حصل مع شكري حين واجهه صديقه اللوطي في شقته ، وكان ققد مضى زمن وهو يشرب بافراط ؛ فتصارعا وانتهيا بخروج الصديق مطعونا بالسكين. أما هو، وحين أتاه صاحب العمارة يساعده ، طلب منه أن ينقله الى مستشفى ماريوكا ، لكن المفاجأة كانت أن شكري وصل المستشفى وكأنه وصل البيت وليس العكس:" أفقت حوالي الثانية صباحا في حجرة مع مريضين . عزلة اشتقت اليها . بعيدا عمن أعرفهم ومن لا أعرفهم . أف للقرف البشري " [2] . وفكرة اللجوء الى المستشفى كهروب من العالم الخارجي تعبير حقيقي من القرف الذي يعتريه من البيئة المحيطة به.

وكاتب السيرة الذاتية يعيش مساحة الكتابة بعمقها ، ويعاني مشقاتها سعيا للوصول الى أبعاد شخصيته ، ليجد بعد ذلك أنه أضعف من أن يرسم صورة متكاملة لنفسه : " هذا الكتاب ليس رسما شخصيا للذات . اني أترك هذا الرسم للأصدقاء وللأعداء . فالكل سواء ، لقد وجدت نفسي لسنوات عدة أبحث عن أحد أطلق على نفسه اسم غراهام غرين "[3] . والبحث لن يتوقف عن ايجاد الذات ومصالحة الذات بذاتها طالما هناك صراع داخلي أبدي في أعماق الشخصية الانسانية . يقول كلفن هال في ذلك : " والصراع الباطني يربض في أعماق الشخصية. ومثل هذه الصراعات ينبغي تمييزها من الصراعات التي تقوم بين

---

[1]- العقاد 136.

[2]- شكري ، الشطار 188.

[3] -Greene, *Ways of Escape* 311.

الشخص وبيئته . ومع ذلك ، ان هناك عددا لا يحصى من الصراعات الباطنية ، بقدر ما يكون هنالك من شحنات انفعالات وشحنات مضادة ومتعارضة " [1] .

انها تلك الصراعات الباطنية التي تسجن الشخصية في دوامة لا تخرج منها الا بجرعة الدواء التي تتناولها عندما تستخدم اللغة وسيلة للعبور الى جسر الخلاص من وجع المرض النفسي . فتكتب تعبيرا وتفسيرا وتحليلا الى أن تصل درجة الوعي بالمرحلة التي هي بها ، فتصفو وتتعرى للحقيقة ، وتدرك أن للواقع وجها واحدا هو الحاضر المبني على جذور الماضي والمركب على آفاق الغد. والوعي للمرحلة الراهنة يعني المواجهة، ومواجهة المشكلة يعني بداية حل الأزمة التي تولدت في النفس بسببها.

والوعي يحضن كل ما يختزنه اللاوعي ولكنه لا يدركه الا في حالة تصالحه مع هذا اللاوعي، وهذه المصالحة ليست سهلة المنال بالطبع. فالصور في حالة اللاوعي تأتي غير واضحة ومرمزة ولكنها تنعكس في الأفكار والأعمال الواعية .

كلما اقتربت الصور والاشارات والرموز من الأحداث المرتبطة بها ذهنيا ، أصبحت هذه الرموز أكثر وضوحا وأقرب الى ادراك الوعي لها. فالوعي ، كما يقول يونغ:" هو الأساس لقيمة اللاوعي. انه مؤهل ليحدد معنى الصور ويدرك أهميتها بالنسبة للانسان في واقع الحاضر المتماسك " [2] . فيونغ هنا يضع الوعي أمام مسؤولية كاملة تجاه اللاوعي بحيث نجد أنه هو الذي يعطي قيمة اللاوعي. فما قيمة مخزون اللاوعي اذا لم يصل درجة الوعي وبقي مدفونا فيه؟ انه الكبت الذي ينتج الانتقام اللاواعي والخوف الذي يولد الهروب من الذات ومن الآخرين ، فيضعف بذلك الشخصية . وهنا يأتي دور الوعي ليعطي المرء الثقة كي يواجه بها بيئته ، ولكي يتحرر من ضعفه وأزماته النفسية التي

---

[1]- هال 61.

[2] - Carl Gustav Jung , *Man and his Symbols* (London: Adlus Books, 1964) 257.

أسست لها ظروف مجتمعه في مراحل الطفولة. ولكن، كيف يعي المرء المرحلة التي يمر بها؟

ان السيرة الذاتية ، باعتبارها نوعا من أنواع الفنون ، تعكس حالة كاتبها وتصور أعماقه بصدق وشفافية اذ أن الفن : " لا يتولد عن الهدوء والطمأنينة ، مهما يكثر نصيب الفنان من الشعور أحيانا بالهدوء في الكتابة . انه ينبع من التوتر والعاطفة، ومن حالة عدم التوازن التي تعتري الفنان [1] . ولقد كتب شكري في سيرته الذاتية عن ذلك معترفا ، وبصدق شديد ، بما يدفعه للكتابة :" لا أتذكر همومي الا عندما أجلس لأكتب " [2] . هذا لا يعني أن شكري لا يعي المرحلة التي يعيشها الا حين يحضن القلم ويشكو هموم العمر للكتابة، بل يعني أن حالة الوعي موجودة دائما، لكن الكتابة هي الحالة التي تضعه أمام المسؤولية التامة لتذكر المرحلة الراهنة وتسجيلها لحمايتها من خطر النسيان. والسيرة الذاتية تساعد كاتبها على لملمة جذوره واعادة تركيب شخصيته التي بنتها طفولته بايجابياتها وسلبياتها : " وكاتب السيرة لا يعمد الى كتابة السيرة الذاتية الا طلبا لجذوره ومنطلقه ، وهذا ما يفسر المنزلة المخصوصة التي يحظى بها ، في كثير من السير الذاتية حديث الطفولة والبحث عن الذكرى الأولى على وجه الخصوص " [3] .

وما ساعد غرين على استعادة اللحظات التي عاشها في ماضيه وافتكار وعيه لها ، هو تسجيله ليومياته ومحاولاته الدائمة لتحليل الأحداث تحليلا دقيقا . لقد عاش غرين هاجس الموت ، واختبر التغيرات المتأتية على شخصيته والتي أدركها وعيه ، وسجلها وذكرها في سيرته الذاتية مما جعل مهمة الوعي لادراك المرحلة الراهنة سهلة لديه . فبعد أن كان عاجزا عن مقاومة رغبته في الموت ، أو على الأقل هذا ما كان يظنه ، اكتشف في مرحلة من

---

[1]- ليو ادل ، فن السيرة الأدبية ترجمة صدقي حطاب ، الطبعة الأولى (بيروت : دار العودة ، 1988) 152.
[2]- شكري ، الشطار 167.
[3]- ماي 179.

مراحل الوعي أن الموت ليس رغبة بل ان الحياة مهمة لديه وان مفهومه السابق خاطىء وغير صحيح : " لقد اكتشفت في أحد الليالي اكتشافا أثار اهتمامي . لقد اكتشفت في ذاتي رغبة جمة في العيش وحب الحياة " [1] . واكتشاف الذات هو وعي وادراك ليس فقط للمرحلة الراهنة ، بل انه أيضا وعي للحقائق على المستوى الشخصي العام.

أما الحال عند شكري ، فقد كانت أصعب بكثير اذ كانت حالة تحد مع الذات . لقد كان يعي المرحلة الراهنة ويرفضها. كان يتحداها بصعوباتها ، ويستقوي عليها. فحين وصل الى تطوان طالبا العلم والمعرفة ، وجلس للمرة الأولى وراء طاولة الدرس في المدرسة بين الرفاق ، لم يشعر بالدونية فحسب، بل انه شعر بالمسافات الشاسعة بينه وبين العالم. ورغم ذلك، قبل التحدي، وقرر المضي في الجهاد وعدم الرجوع الى الوراء : "شعرتني أقل واحد بينهم : لم أكن أعرف سوى الحروف التي علمني اياها حميد في طنجة. حزنت . مذنب . مكاني ليس بينهم. لقد جئت من عشيرة القوادين ، واللصوص ، والمهربين ، والقحاب . لكأني في مكان مقدس أدنسه ، ولكن قد يكون بينهم من هم أبناء هؤلاء المنحوسين مجتمعين . عزيت نفسي . انني في مطهر اذن . لو لم يأتوا ، هم أيضا ، فلربما يصيرون مثلما كنت . زالت كآبتي وأنا أدافع عن نفسي حتى لو كنت مخطئا فيما تصورته عنهم . صارعت فكرة البقاء هنا أو العودة الى طنجة ..سأبقى هنا حتى ولو زالت زرقة السماء الى الأبد في حياتي " [2] . فهو مدرك تماما للحالة التي هو بها ، ويعي صعوبة الموقف الذي اتخذه؛ قرر التحدي ، والاصرار على التخلص من نقاط الضعف التي كانت تسكنه ، ومضى في طريق العلاج من أزمة نفسية جعلته في دونية عن الآخرين .

---

[1] - Greene, *Ways of Escape* 56.

[2]- شكري ، الشطار 23.

والمهم في هذا هو الجرأة في المواجهة حيث تتركب العديد من الصور التي تمثل صراع الانسان مع ذاته، وتصور عيوبه وأخطاؤه كما هي دون تزلف أو تستر. في الجرأة اعتراف ، وفي الاعتراف تعر ورؤيا حقيقية للذات كما هي لا كما نحب أن نراها . في الاعتراف تعر حقيقي يكشف عن العيوب والآثام؛ انها حالة من التعري النفسي الخاص الذي يبرز صراعا ذاتيا مع الذات لتبلغ هذه الذات مرحلة الوعي والادراك وتتصالح مع الواقع ، وبذلك تتكيف معه وتتأقلم بلا خوف أو هروب.

ولكن بعض النقاد يستبعدون وجود سير ذاتية خالصة ، فيها من الصراحة ما يكفي لكي تكون اعترافا صادقا : " على أنه، مهما بلغت درجة الصراحة لدى بعض كتابنا المحدثين ، فانها لم تبلغ لديهم ، ولا لدى القدماء ، حد الصراحة العارية ، والاعتراف المكشوف " [1] . وهذا بالطبع رأي وليس بالضرورة حقيقة. فحين يكتب شكري بالجرأة التي كتب بها عن طفولته وعن عائلته ، وصور مراحل حياته ، والمراحل المزرية التي مرت به، والعقبات التي أعاقت تطوره المهني، والمهانات، والذل الذي تحمله ، والتجارب التي اختبرها ، كل ذلك يبين أن سيرة شكري لم تكن سوى مرآة شفافة تعكس ذات شكري المعراة أمامها .

لقد كتب شكري سيرته الذاتية بصراحة جارحة خالية عن أي ادعاء أو تكلف وان كنا قد لاحظنا العمق الفكري والبعد العقلي المتزن في الجزء الثاني ، فمثلا كان يسخر مدرس العربية من ضعفه في المواد العربية ، وكان يحقر من سنه المتقدمة ومن مستواه العلمي ، حتى أنه كان يسمعه كلمات سيئة جدا ، ويضربه ويسبه. وفي أحدى المرات، فكر في أن يعيد ردة فعل طنجة ويضرب الأستاذ ، ولكنه تعقل واختار الحكمة في صمته ليبقى

---

[1]- عبد الدايم 146.

في المدرسة ويتعلم : " فكرت في أن أنهض وأرتمي عليه . أن أتناطح معه كما كنت أفعل في تطوان أو في طنجة في المشاجرات حتى لو انهزمت . أن نتعارك حتى يخور أحدنا ، أن أحاول عض أذنه الحماريسة حتى أبترها وأبصقها في وجهه ، لكن سيكون آخر يوم لي في المدرسة . سأترك أذن الحمار لأسنان الحمير " [1] . ولقد حكّم العقل ليستمر في المدرسة فلا يطرد ولا يفقد آخر أمل له بتغيير حالته الاجتماعية.

والأمر يحتاج الى جهاد وصراع مع الواقع . انه لمن الصعب جدا أن نعري ذاتنا ومشاعرنا أمام الآخرين، وأن نواجه السوء بالعقل من أجل المصلحة الشخصية في الوقت الذي يجد الانسان ذاته قادرا على الرد وعلى الانتقام. الا أن وعي الذات وادراكها وتعقلها يجعل حتى تعريها صادقا . ومن الطبيعي أن نجد أن معرفة الذات وتعريتها أمام الآخرين ليستا بالأمر السهل. وهذا ما شعر به ميخائيل نعيمة وهو "يعري" نفسه أمام الآخرين . لقد كان دائم البحث عن ذاته في دوامة الحياة وعلاقتها بالوجود والكون ، والغاية من الوجود . ورغم أنه يجد لذته في ذلك : " ومعرفة الذات لديه ، لم تكن أمرا يسيرا ، بل هي غاية شاقة مضنية ، لم يتوصل اليها الا بعد معاناة ومكايدة . خاض في سبيلها ضروبا من الصراع ، وتجرع من أجلها طعوما من الآلام " [2] . وهذا جميل جدا رغم صعوبته حين يتم انجازه.

والفكرة هي أن الماضي والحاضر قد يتجاذبا ويتباعدا ويتداخلا ، فينتج عن ذلك شيء من التشوش ، وهذا ما يراه جورج ماي ، فيقول :" لا مفر من أن يؤدي تدوين المرء لما حفظه عن حدث ماض، الى التقريب بين ماضي الذكرى وحاضر الكتابة أو الى المجابهة بينهما . فينشأ عن ذلك تداخل مشوه ومشوش وان اتصف بشيء من البساطة عند كتاب

---

[1]- شكري ، الشطار 37.
[2]- عبد الدايم 308.

السيرة الذاتية "[1] . لذلك ، نجد أن تعرية الذات يشوبها نقص في تمثيلها تمثيلا كاملا قد يكون عن قصد وقد يكون عن غير قصد ، وهذا ما سنبحثه في الفصل الرابع.

أما بالنسبة الى ميخائيل نعيمة، فهو حين كتب سيرته الذاتية قرر أن يكون كتابا مفتوحا أمام قارئه، وأن لا يخبىء أيا من تجاربه عليه. كما ذكر وهو في سياق كشفه عن غايته من كتابتها : " انها اللذة التي يلاقيها الانسان اذا هو تعرى أمام اخوانه الناس من جميع أسراره وأوزاره . فبات وكأنه البيت من زجاج – كل ما فيه مكشوف للعيان "[2] . وهنا نكتشف نوعا آخر لمفهوم التعري، انه اللذة في مشاركة الآخر همومه وأسراره ؛ انها متعة التعري أمام الآخرين حيث تعزز الذات الضعيفة موقفها بمواجهة الأشياء واحيائها من جديد .

فلو عدنا الى سيرة شكري بجزئيها، لوجدنا أن ادراك الذات للحقائق، واكتسابها النضج والامكانية، حولّ الكثير من مواطن الضعف الى مواطن قوة انعكست في أسلوب سرده لسيرته الذاتية في جزئها الثاني. فالفصول في الجزء الثاني بدأت تتلون بالعناوين التي افتقدها الجزء الأول، مما يعني أن الكاتب بدأ يعي علاقة النص بالمضمون وهذا ما لم يكن يعيه من قبل . فجاء كل عنوان رمزاً على ما يقع تحته من مضمون ، مثال على ذلك العنوان الأول " زهرة بلا رائحة" الذي يعني بها زهرة شبابه وذاته التي تمزقت اربا في طنجة نتيجة قسوة أبيه وضعف أمه. وعنوان الفصل الثاني ، " حين يفر السادة يموت العبيد" قصة ثورة الشعب على الباشاوات ويقظته على الاستعمار ، والانتقام لسنوات الظلم والاستغلال التي تزامنت مع انتقام شكري الشخصي لذاته . انه وعي ليس فقط للمرحلة التي يمر بها شعب ، بل لمرحلة استغرقت جزءا كاملاً من سيرته الذاتية .

---

[1]- ماي 85.
[2]- نعيمة 14.

والعنوان للنص يعني استقلالية المادة عن الواقع ، ففي الجزء الأول كانت الذات منصهرة، ومحلولة انحلالا تاما في الواقع وهذا ما تغير في الجزء الثاني حيث لمسنا روح الثورة وعدم الاستسلام ، وحتى صراع الذات مع الذات في سبيل التطور والتحرر والتخلص من الواقع الذي ذله لفترة طويلة من العمر. يعلق صبري الحافظ في مقالة له تحت عنوان " البنية النصية لسيرة التحرر من القهر " ، وقد نشرها في نهاية الجزء الثاني من سيرة شكري الذاتية ، فيقول : " اذا كانت ' الخبز الحافي ' تقدم لنا الانسان الطالع من القاع الاجتماعي ، فان 'الشطار' تقدم لنا سيرة الكاتب مع الكتابة ، ومع التجربة المعرفية كلها"[1].

فادراك الذات استغرق من شكري زمنا ليس أقل من عشر سنوات فصلت بين الجزء الأول والجزء الثاني. هذه هي الفترة التي دفعته الى اكمال رسالته واتمامها وان فرّق بينهما زمن طويل . وبدا الفرق واضحا حين كتب مقدمة الطبعة العربية للجزء الأول من سيرته الذاتية : " لقد علمتني الحياة أن أنتظر . أن أعي لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما استحصدته : قل كلمتك قبل أن تموت فانها ستعرف ، حتما ، طريقها . لا يهم من ستؤول اليه . الأهم هو أن تشعل عاطفة أو حزنا أو نزوة غافية . . أن تشعل لهيبا في المناطق اليباب الموات " [2] . لقد بدأ يعي ، لقد بدأ يدرك ، لقد بدأ يقدر أهمية الحصاد ، فصار يحافظ عليه ويخاف خسارة ما يجنيه. وهذا كله نتيجة وعي الذات وادراكها ، واستعادة الأحداث والتروي في التفكير فيها ، وتعرية الذات أمام الذات واحياء الأحداث كما هي دون مبالغة، كل ذلك ساعد على ادراك الأشياء بوعي أكثر .

ولكن الى أي مدى تساعدنا الذاكرة على استعادة الماضي؟ وماذا عن النسيان؟ هل بعضه عفوي وبعضه الآخر مقصود، أم هو كذب لا واع نظنه النسيان؟ إن الاعتراف من

---

[1]- شكري ، الشطار 135 .
[2]- شكري ،الخبز الحافي 8.

أصعب المهام التي يكلف الانسان نفسه بها اذ أنه محاكاة ذاتية وحوار نفسي خالص، إنه الوجه العملي للتعري أمام الغير. أما مدى صدق هذا التعري فأمر آخر. لقد رأينا في هذا الفصل أن الاعتراف وسيلة للشفاء من مرض نفسي، وأن فيه تعبيراً عن الخوف والهروب من الظروف الصعبة التي مر بها منذ زمن الطفولة . فادراك الذات لذاتها عند تعريها في السيرة الذاتية هو التعبير عن وعي الشخصية وبلوغها مرحلة النضج ، مما يثبت أن الرغبة في الانتقام من تعاسة الطفولة ومن السلطة الأبوية التي هي أساس المشكلة النفسية ، هي حالة من الألم والمعاناة، ولذلك تبقى رغبة داخلية لا يصيب ضررها، لهذا يعالج الانسان آلامه بالنسيان.

والنسيان يتوجه إلى الذاكرة التي تخزن الأحداث فيداورها بالتحليل والتدوير والتبرير. لهذا كانت الذاكرة دوماً ساحة صراع عند كتاب السيرة الذاتية، بين الرغبة في نسيان الماضي للشفاء منه والرغبة في استعادته والاعتراف به للشفاء منه أيضاً . فماذا بين الذاكرة والنسيان؟

الفصل الرابع

بين الذاكرة والنسيان

بين الذاكرة والنسيان حكاية يطول سردها وتتفاوت نهاياتها . فالكاتب ، وبخاصة كاتب السيرة الذاتية ، ينطلق برحلة كتابته من الزمن الحاضر ويزور الذكريات المدفونة في الماضي ؛ ينبشها، يحاول التأثير في اللاوعي من حيث ربط الأحداث والشخصيات ليستعيد بالوعي بعضا مما في طياته ، ويعبر مشقات التفاوت المكاني والزمني معا ، مستنطقا ذاته المبنية على التوازن الثلاثي الأبعاد : الماضي، الحاضر، والمستقبل. والذات البشرية هي بذرة خلق متأرجحة بين الأزمنة الثلاث ، تبدع في الخلق بقدر ما تعي ما يحدث، لأن صراعات الحياة لا تنتهي ، وهوية الذات لا تستقل الا اذا أثبتت وجودها في المراحل المختلفة ولا تثمر الا اذا توحدت ولم تتشرذم .

أما لماذا أخص كاتب السيرة الذاتية دون سواه ، فلأن السيرة الذاتية قرار جريء بكشف الحجاب عن الذات الخاصة المستورة ، ولأن السيرة الذاتية هي السفور عن العيوب والأخطاء والأحداث والآلام والأوجاع المقيمة في الزمن الذي طواه النسيان. يستعين كاتب السيرة الذاتية بالذاكرة ، فيعتمد على قوتها وقدرتها على ادراج المكبوت في اللاوعي على لائحة الذكريات المخطوطة في الوعي . وتبدأ لعبة الوعي مع اللاوعي للتحكم في عملية التذكر والتحاور مع الأمس البعيد القريب، فيحاول الكاتب إلقاء الضوء على أحداث أو شخصيات من الماضي بمقدار ما يسمح به اللاوعي بالكشف عنه.

واذا كانت الذات تبحث في الذاكرة عن الماضي ، فان الماضي متصل بالحاضر وبالمستقبل معا، لهذا تستعيد الذات الماضي باحساس الحاضر ، والماضي بهذا لا يكون فقط مجموعة ذكريات يخزنها الوعي في الذاكرة بل " ان الماضي هو مقدرة على الاحتفاظ بالذكريات والعمل على استثارتها عند اللزوم ، بمقتضى فعالية حاضرة تملك باستمرار بعث

تلك الذكريات أو استحضارها " [1] . والهدف هو معرفة الذات وادراك هويتها والتعرف بحقيقة وجودها اذ " ان كل انسان يحاول اكتشاف نفسه أو هويته بالطريقة التي تناسبه ؛ فمنهم من يساير ما هو موجود حتى لو كان يتعارض مع قيمه الأصيلة ، ومنهم من يستورد هوية جاهزة من الخارج ، ومنهم من يحاول تأصيل هويته بمفهوم علاقته بالواقع والآخرين"[2] . ويتبع كل فكرة أو شخصية أو حدث يستحضره الكاتب تحليل مبني على فهم الكاتب للواقع ورؤيته لهذا الواقع من منظاره الذاتي للأشياء. والتحليل يكون دائما شخصيا وغير موضوعي لأن "الأنا" تكون هي العنصر المسيطر والصوت المسموع . أما "الآخر"، فهو صورة رسمتها الأنا، ولذلك يراها القارىء من وجهة نظر الكاتب الشخصية لا الموضوعية. ونلاحظ أن الحكم على الحدث أو على الشخصية يصدر دون الأخذ بعين الاعتبار أي رأي مغاير.

فشخصية العم في سيرة غرين حاضرة ضمن المساحة التي سمح بها غرين في الزمن الحاضر. أما حقيقة هذه الشخصية بسلبياتها وايجابياتها فتبقى رهن وعي الكاتب بها . يصف غرين شخصية عمه بقوله انه "شخصية جافة وصامتة ، يرتدي معطفا بشريط أسود تتدلى فوقه نظارة " [3] . ثم يتابع قائلاً : "كان في كلامه الكثير من: ايه ، آه . ربما كان يستاء بسهولة من أي كان الا من الخادم اللطيف "[4] . وتحليل غرين لهذه الشخصية هو تحليل ذاتي يعتمد على انطباع عام مفاده أن أسرة عمه كانت تربطها علاقة جدية بأسرته، ولكن علاقتها

---

[1]- شرف 26.
[2]- رووكي 21.

[3] - Greene, *A Sort of Life* 22.
[4] - Greene, *A Sort of Life* 22.

بالعائلة كانت بعيدة وغير مترابطة ؛ كانوا مختلفين لأنهم : "الأغنى والأكثر ثقافة في عائلة غرين " [1] .

أما التحليل الذي يذهب بالأحداث الى منحى فلسفي فهو الأعمق والأكثر ربطا بين الواقع وأعماق كاتب السيرة الذاتية. ففي سيرة شكري الذاتية ، وتحديدا في الجزء الثاني ، نجد الكثير من الوقفات الوصفية التي تحلل اللحظات المستحضرة ، والكثير من الأفكار التي تحكمها ملكة العقل لا ملكة العاطفة مما يدل على أثر التجارب التي مر بها شكري والخبرات التي افادها على الصعيدين الفردي والجماعي . فبات يحلل اللحظات التي يمتزج فيها الزمن الحاضر بالزمن الماضي ، علّ بقية من البقايا تخلص من الهلاك الذي عاشه في حياته . وفي وقفة وصفية تحليلية يقول: " حينما يملؤني الليل بين المباح والمحرم أتوزع. لو أنني مثل زهرة لا تتناسل ، لو أنني أخلق نفسي من ذاتها، لو أنني أعطي لها مصيرها ، لو أنني ألغي كل ماهية ، لكن كل عاطفة هي عاطفتي . انني سليل العواطف القطعية . سليل أمبراطورية الحواس . سليل النملية والسمكية. تفرّدْ، ترَ مصيرَك . أهي كل رجولة وليدة طفولتها ؟ أهي مرتبطة بها ؟ أهي طفولتي في رجولتي ؟ طفولتي مجروبة . من يقترب من رجولتي اذن ؟ لكأني ولدت بين زهرتين لا أحب احداهما " [2]. فبكل حواسه وكل ما في جوارحه من مآثر ، يريد شكري من ذاته أن تواجه ذاتها ، لا بل أن تخلق ذاتها . كما يريد أن يحلل ويحلل ، يريد أن يتوقف عند كل حادثة وكل احساس يحسه، ليتأمله وذاته بصفاء ذهني تام بغية اختراق هذه الذات المتعبة ، والتوحد بها من أجل الوصول الى سلام داخلي طالما كان يتوق اليه منذ زمن بعيد . وفي هذه السطور لكأننا أمام محلل نفسي يفكك الرجولة من الطفولة ، والطفولة من أزماتها ، ليلملم الذات الموزعة بين زمنين مختلفين لا يلتقيا . وما

---

[1] - Greene, *A Sort of Life* 21.

[2]- شكري ، الشطار 138.

انجاز شكري لسيرته الذاتية الا ربطا لهذين الزمنين في ذات واحدة لها هوية موحدة أولها خبزها حاف وآخرها اكتفاء الشطار.

ولكن السيرة الذاتية تعتمد على الذاكرة التي تخضع لترتيب زمني غير دقيق، لأن الانسان لا يستطيع تذكر كافة الأحداث كما هي ، وبالترتيب الزمني الذي تولدت فيه، فينشأ عن ذلك بعض من التدوير والاستطراد وادخال وعي الزمن الحاضر بالذكرى الماضية. والتدوير عند نقل الأحداث من الزمن الماضي للزمن الحاضر لا يعني الكذب ، فالتدوير هو نقل الحدث بالمفهوم الحديث للحدث محملا بالتضليل الذي أضافه عليه ، بالضرورة ، عامل الزمن لأن الانسان " ضحية الذاكرة والزمان اللذين يفرضان عليه ضروبا من الخداع والتضليل والخذلان . ليس في وسعه أن يصبح بمنجاة منها ويذعن في النهاية لألوان كثيرة من الايحاءات والافتراضات المستقرة في اللاشعور " [1] .

والذاكرة هي المحرك الوحيد للمخزون فيها عبر الزمن الا أنها تحجب بعضه عن الوعي لا- ارااديا بحكم أن أمر استرجاع كل الذكريات من دفاتر زمن الطفولة خاصة ، يكاد أن يكون أمرا مستحيلا : "وذكريات الطفولة ، لها خطرها في بناء الترجمة الذاتية ، لقيمتها النفسية ، وقيمتها الأدبية التي ترجع الى اكمال النقص في ذكرياتنا عن هذه المرحلة ، لأن ذاكرة الانسان لا تبقى الا على خيوط رفيعة للغاية تذكرنا بأحداث طفولتنا . فهي تلقى أستارا كثيفة عليها ، فتحجبها عن وعينا ، ولا نستطيع أن نستدعي منها سوى أطراف لا تكون في النهاية الا صورة باهتة عن ذكريات تلك المرحلة " [2] . وقد ذكر مورا أن الانسان يقع فريسة المسافة بين الزمنين الحاضر والمستقبل ، وبأن عملية التذكر يشوبها الكثير من التشوش والتضليل مع مرور الوقت عليها : " لا مفر من أن يؤدي تدوين المرء لما حفظه

---

[1]- عبد الدايم 7.
[2]- عبد الدايم 133.

من ذكرى عن حدث ماض، الى التقريب بين الذكرى وحاضر الكتابة أو الى المجابهة بينهما. فينشأ عن ذلك تداخل مشوه مشوش " [1] ، الا أنها تعبير عن أهم مظاهر الحياة الشخصية المتداخلة الأزمنة والأمكنة والأحداث والآلآم والتجارب .

أما الاستطراد ، فهو خاصة متلازمة مع قلم أي كاتب ، خاصة كاتب السيرة الذاتية الذي يكثر من الاستطراد اذ أنه قد يذهب بقلمه الى الاسهاب وهو في قمة انسجامه مع لحظات الماضي ، والتماسك ووحدة الفكرة تعيده من المكان الذي استطرد اليه . وهذا ما اشتهرت به سيرة ميخائيل نعيمة " سبعون" ، اذ فصّل ، وباسهاب شديد ، حدود المكان الذي نشأ فيه ، وأيام الطفولة في بلدته "بسكنتا" ، ووصف الجبال ، ووادي "شخروب " وصفا جغرافيا دقيقا، الى أن وصل في استطراده الى الحديث عن صعوبة الحصول على تذكرة نفوس من المحكمة اللبنانية آنذاك ليضمها الى أوراقه ليدخل بها الى المدرسة ، ليكتشف عندها أنه ليس فقط لا شهادة ميلاد لديه بل ان أسرته لا تعرف تاريخ مولده على وجه التحقيق. فمثل هذه الأحداث التي أخذت مساحات كبيرة من السيرة الذاتية ، والتي وصفت الكثير من الأحداث وتناولت نقدا اجتماعيا للمرحلة التي وقعت فيها هذه الأحداث ، هي استطرادات لا تضيف الى السيرة أي جديد الا أنها تعطي كاتبها حالة من المصالحة الذاتية مع العصر الذي عاش فيه لفترة من الزمن استغرقت جزءا من حياته وشخصيته فصارت منه وله . أما القارىء ، فيشعر أن الزمن الذي يعيشه في السيرة الذاتية ، بعيد عن أي تسلسل منطقي ، وبأن الشخصيات التي يلتقيها لا تصب كلها في محور شخصية بطل السيرة الذاتية وراويها.

---

[1]- ماي 85 .

وهذا يثبت حقيقة، أن الاستطراد يفقد السيرة الذاتية وحدة الترابط بين الأحداث والتماسك في الأفكار ؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على وحدة البناء اذ يحدث فيه فجوات نصية تخلخل التسلسل في الأحداث. الا أن الاستطراد عند بعض كتاب السيرة الذاتية ضرورة يحسها الكاتب كحاجة تلح عليه باستمرار . فمع أن الأحداث لا علاقة مباشرة لها بأموره الشخصية ، الا أنه لا يستطيع مقاومة وجودها في سيرته الذاتية . والاستطراد يسبب ما يشبه القطع الزمني الذي رأيناه عند نعيمة ، كما يسبب اضطرابا في السرد وتداخلاً بين الصور والأحداث التي لا ارتباط لها بحياة الكاتب الخاصة . انه وقفات وصفية على نوعين : استذكارية واستشرافية. الأولى تعود من الزمن الحاضر الى الزمن الماضي، والثانية تستبق حدث التذكر فتقفز بالزمن من النقطة التي بلغها إلى نقطة لم يحن وقتها بعد في تسلسل السرد.

وعندما يعتمد الكاتب أسلوب الاستذكار في وقفاته الوصفية، فانه يذكر أحداثا في سياق أحداث، مثلما فعل شكري حين جرفه الحنين الى ماضي الطفولة: " أستعيد الحنين الى ملاعب طفولتي في متاهات الدروب، والأحياء، والضواحي : أيام الزعارة والفتوة، وحومة (حي) تهجم على حومة، سرقة بساتين الفواكه، في ضفة الوادي عرايا نتبارى بالاستمناء : ها أنا قذفت الأول . وأنا بعده .. " [1] . وهذا النوع من الوصف يحتم على الكاتب العودة بالزمن الى الوراء "لعرض الشخصيات الجديدة التي لم يسبق له ذكرها"[2]. وهذا ما فعله غرين حين تناولت سيرته شخصية عمه المتميزة وعائلته والتي وصفها ووصف العلاقة بينها وبين عائلته من خلال العودة الى الوراء وتذكر أيام الأعياد والمناسبات وغيرها . كذلك فعلت طوقان عندما أدرجت شخصية عمتها الشيخة لاحقا في سيرتها الذاتية قائلة :

---

[1]- شكري ، الشطار 93.

[2]- تهاني شاكر ، السيرة الذاتية في الدب العربي الطبعة الأولى (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2002) 135.

"في السادسة عشرة من عمرها ، عادت الشيخة الى بيت أبيها مطلقة بعد زواج فاشل دام لعدة شهور قليلة"[1].

أما الوصف الاستشرافي، الذي يتضمن القليل من الاستطراد؛ فهو الأسلوب الذي فيه يتذكر الكاتب أحداثا حصلت لاحقا ، فيقفز زمنا لا يستهان به من الماضي ، باتجاه الزمن الحاضر، ويضيف عليها بأنها حصلت لاحقا . وليؤكد أن الحدث قد حدث فعلا، يدعمه بالتاريخ والأسماء، فيصبح واقعة الا أنها واقعة مستطردة تهدد محورية النص وتخلخل البنية النصية ، " فيثير فيه المؤلف أحداثا سابقة لسياقها الزمني ، أو يمكن توقع حدوثها " [2] . والمثال واضح عند شكري حين أعلن موت أبيه قبل 23 سنة:"أبي سيموت في صيف 1979، أي بعد 23 سنة " [3] ، وحين كان مع المختار الأعمى يجتاز الطريق وأخبره هذا الآخر أن العربية هي لغة صوتية، كان هذا في سنة 57 ، وأضاف شكري أنه " في الثمانينات قرأت كتابا عنوانه 'العرب ظاهرة صوتية ' " [4] . هنا شكري يتحاور مع قارئه ويقفز بالوقت مدة لا تقل عن ستين عاما ليخبره بما سوف يحصل ، وهذا هو الاستشراف. وكذلك فعل في مكان آخر : " كان المختار يحي تقاليد الحب العذري عن صدق. وسيموت بعملية جراحية في قلبه الضعيف العاشق عام 74"[5].

والحال كذلك عند غرين ، حين كان يتذكر أيام طفولته والألعاب التي كانت تستهويه ويمضي معظم الوقت مع أبطال اللعبة التي بين يديه ، وبعض صور الفرسان المتواجدة في مجلات الفتيات الصغيرات ، موضوعة في غرفة الطعام ، مما يحمله على الاستشراف : " لاحقا أحببت ايفانهو وقصة موريس هوليت ' عشاق الغابة ' ، وأول قصص حاولت كتابتها

---

[1]- طوقان 32.
[2]- شاكر 135.
[3]- شكري ، الخبز الحافي 9 .
[4]- شكري ، الخبز الحافي 35 .
[5]- شكري ، الخبز الحافي 60.

كانت عن القرون الوسطى " [1] . كذلك الأمر حين كان يتحدث عن هروبه المتكرر من المدرسة : " لا أعلم كم استمرت تلك الحالة من الهروب المشتت . لقد بدأت تنتظم قليلا وتصبح هروبا متقطعا لكنه طويل بعد حين - لا أدري – أظن عندما أصبحت في الحادية عشرة من عمري " [2] . وأيضا حين ذكر أن أخته تتزوج لاحقا بالشاب الذي التقط لها الصور حين وقعت وهي تتسلق أحد الجبال في يوم من أيام عطلة صيفية قضتها مع العائلة عند بيت عمها قرب بحيرة " ديستركت " : " فبقيت وحدي مع أمي و أخي هيو . (وأخيرا وقعت أختي مولي وهي تتسلق الجبل وتزوجت بالرجل الذي التقط لها الصور وهي تقع – ربما احترمت حضوره وشخصيته)"[3] .

ان استخدم الكاتب أي من الوصفين ، فهو حر في خياره ولا حاجة له لتبرير ما قد يفعله أو ما قد يقوله، وذلك لأنه يعتبر أن كل ما يكتبه متنفسا له يعبر فيه عما في داخله ، أي أنه ترجمة لأحاسيس معينة يملكها هو تماما كما يملك القلم . لذلك ، نجد أن هناك سيرا ذاتية على شكل كتاب مفتوح تحكي العيوب والهفوات دون ندم أو حياء أوخوف من اللوم أو السخرية أو الحساب، وقد نجد سيرا ذاتية أخرى تتحدث عن الثقة بالنفس والانجازات والخبرات الواسعة في الحياة بحيث لا يسلم صاحبها من شيطان الغرور .

مهما يكن من أمر، فان التبرير لا يضيف على السيرة الذاتية أي أهمية بحيث أنه لعبة تدخل في نطاق تجميل ما في وعي الذات للواقع وللأحداث المستعادة من الماضي . أما الموجود في الذاكرة كما هو ، فيبقى الأهم . والذاكرة لا تستعيد كل الذكريات لأنها " تتذكر

---

[1] -Greene , *A Sort of Life* 30.
[2] - Greene, *A Sort of Life* 68.
[3] - Greene, *A Sort of Life* 23.

فقط لتصل الى خاتمة معينة . انها جزئية ، لأن اجتياز رحلة الزمن لا يربط البداية بالنهاية . ان الذاكرة لا تعرف الى أين تصل لأنها تعاني من مرض النسيان " [1] .

والنسيان ، تصحيفا كان أم عفويا ، يشكل الخطر الأكبر على الذكريات التي لا تضيع الا حين تقع في قبضته، فيحول دون تحقق الصدق في السيرة الذاتية . فالنسيان العفوي هو النسيان الطبيعي ، أما النسيان التصحيفي فهو النسيان المتعمد أو التناسي ، والحذف والاضافة والتعديل . وفي عملية تسلسل الأحداث، قد يسقط البعض سهوا وقد ينطوي البعض الآخر في خزنة النسيان المتعمد : " ولا بد أن تكون عمليات التذكر في السرد قد خضعت لعملية انتقائية للأحداث الماضية التي من شأنها رسم صورة للذات عبر تاريخ محدد مرتبطة بظروف ما واهمال بقية الأحداث في طي النسيان المقصود " [2] ، أي في طي الكتمان الواعي، وهذه رقابة طبيعية يمارسها العقل الواعي ويقصد بها الكاتب ما سوف يرويه وما سوف لن يرويه . فهو يتذكر ما يريد أن يشرك به قارئه ، ويودع في طي النسيان كل ما يريد، بكامل وعيه، أن ينساه.

في كلتا الحالتين، نجد أن عامل النسيان يغرق كاتب السيرة الذاتية في احراج كبير لأنه طبعا لا يقصد إخفاء الحدث لكن الذاكرة قد لا تلبي حاجات الكتابة أيضا . والصعوبة في ذلك أن ما يطويه عالم النسيان ، كما يقول جورج ماي ، قد يكون هو الأهم : " صمود الذكرى في وجه الزمن يميزها عن ذكريات طواها النسيان . وقد تغيب بعض الأمور وتكون مهمة . ونظن أن ما بقي هو فقط المهم . وهذا مفهوم خاطىء " [3] . وعامل النسيان يرتبط بالعامل الأهم وهو صعوبة خلق الماضي من جديد رغم أن الكاتب يعي تماما أنه يعيش الماضي مرة ثانية.

---

[1] - Daniel Gunn. *Psychoanalysis and Fiction.* (England : Cambridge University Press 1988) 160.

[2]- التميمي 210.

[3]- ماي 162.

والكتابة عن الزمن الماضي تحتاج الى احياء تجربة الماضي بلسان الحاضر وبذلك يصبح هناك "علاقة وطيدة قائمة بين الزمن المروي والزمن المعيش " [1] . فهو:"يخبر قصة حياته التي اكتملت . هو يعرف أنه يعيش التكرار، ليس تكرار الزمن الماضي فحسب، الزمن الحاضر أيضا الذي هو ليس الا زمنا ماضيا " [2] .

كما ان للزمن المروي الفضل الكبير في نبش بعض الأحداث التي قد يكون اللاوعي قد خزنها ، واستعادها الوعي من ذاكرة النسيان العفوي في الوقت المناسب لتخدم الذات في الزمن الحاضر : " فالأفكار المنسية لم تكن غير موجودة ، الا أنها موجودة في حالة وعي ناقص " [3] ، وحين واجهتها الذات بالواقع الحاضر أصبحت حقيقة واقعة ، قادرة على المساهمة في حل الأزمات النفسية التي أسست لها في الزمن الماضي. مثال على ذلك ما حدث مع غرين حين كتب رواية " القوة والمجد" حيث اكتشف ، وبعد حين ، أنها انبثقت من تجاربه الشخصية. في حين أنه في الزمن الذي كتبها به لم يع حقيقة هذا الأمر " لم يكن لدي أي فكرة، حتى عندما عدت الى البيت ، على أن الرواية 'القوة والمجد' قد انبثقت من تجاربي الشخصية "[4]. فهو في لحظة استعادة أحداث الماضي لم يع حالة الربط اللاواعية بين شخصية الماضي وبين شخصية الحاضر والمصالحة بينهما ، وذلك لأنه "بالاضافة الى الذكريات الموجودة في أعماق وعي الماضي ، هناك أفكار جديدة ومبدعة لم تكن أبدا في الوعي ، تحضر من اللاوعي " [5] ، فتخلق التوازن في الشخصية .

كذلك الأمر حين التقى غرين بعد فترة من الزمن بزميل الدراسة واطسون الذي كان يحتقره ويتحامل عليه مع صاحب له اسمه كارتر . وجد غرين أنه انتقم منه بنسيانه له كليا

---

[1]- ماي 222.

[2] - Gunn 127.
[3] - Jung 34.
[4] - Greene, *Ways of Escape* 86.
[5] - Greene, *Ways of Escape* 38.

وهو لا يدري ذلك . فقد اعترف بأن نسيانه هذا الصبي حين ألتقى به وعرفه بنفسه وهم في "ملايا" ، لم يكن عن قصد بل كان نسيانا عفويا " لقد اكتشفت أني لم أتصل به أبدا ، ولم أحضره يلعب البولو ، لم يأت على ذهني أي من الذكريات التي تجمعنا نحن الثلاثة . ربما وفي حالة من اللا وعي انتقمت لنفسي منه بنسياني الكلي له ، وبسهولة "[1] .

أما النسيان المتعمد فهو تجربة الماضي التي يكون قد عاشها الكاتب لكنه لا يريد أن يحياها ، في زمن كتابته لسيرته الذاتية، مرة أخرى. فقد يصطدم كاتب السيرة الذاتية بأحداث أو بشخصيات يفضل ألا يأتي على ذكرها كي لا يمس بأحد منهم أو ظنا منه بأنها ليست ملكا له وحده. وعلينا أن لا ننسى أن الانسان مع مرور الزمن تتغيرمفاهيمه للأمور ويبدأ يتكيف مع الأحداث التي يكون قد نفر مع مثيلتها من قبل والعكس هو الصحيح . فما تعقل شكري وسكوته عن إهانة أستاذه والتلاميذ له الا دليل قاطع على تطور شخصيته وتصالحه مع الواقع والمجتمع الذي لم يكن بالماضي ليشعر تجاهه سوى بعقدة الدونية وبأنه أقل من أي كائن بشري . فهو لم ينل حقه في العيش بكرامة داخل بيته ولم يشعر بأي انتماء اليه يوما ، فكيف ينال حقه خارجه. كل هذه الأمور، بما فيها تجاربه القاسية ، ساعدته على اجتياز أصعب المراحل والشفاء منها عبر الكتابة عن دائه . وهذا ليس شرطا يتبعه كل كاتب سيرة ذاتية ، اذ أننا قد نجد كاتبا آخر يجد دواءه في الصمت عن ذكر ما يؤلمه أو أنه يفضل عدم الخوض في معركة تطال الغير معه : " فالكاتب أحيانا لا يسقط من سيرته الأحداث ليتذكرها فقط ، بل نجده يتعمد الصمت عن بعض الأمور ، التي يرى أنه من الأفضل أن يسدل الستار عليها" [2] .

---

[1] -Greene, *A Sort of Life* 84.

[2]- شاكر 24.

والذاكرة تبقى تحت سيطرة الكاتب ، بما فيها من حلو الذكريات ومرها ومن عيبها ومجدها ، الا تلك الذكريات التي فعلا تبقى أسيرة اللاوعي ، ولا تبصر النور الا اذا توحد الوعي باللاوعي وكشف الستار عن كل شيء ولم يعد هناك من محجوب . الا أن العقبة تبقى في الذاكرة التي مهما نشطت ، تبقى " تفلسف الأشياء الماضية ، وتنظر اليها من زوايا جديدة ، وتهدم وتبني حسبما يلائم تجدد الظروف وتغيرها ، لأنها في عملية كشف دائم . ومعنى ذلك أن الماضي شيء لا يمكن استرجاعه على حاله ، ولا مناص من تغييره ، بوعي أو بلا وعي " [1]. انها مسألة تباري مع الزمن واستحضار الماضي بقوة لحظة وعي الزمن الحاضر للزمن الماضي ، وربما حالة من الفرار من هذا الزمن الى ذاك ، أو" فرار الى الزمن الماضي مؤقتا على الأقل " [2] . لنعتبرها حالة وعي متسلط في الزمن الحاضر على الزمن الماضي الذي تتمحور حوله السيرة الذاتية. ومهما حاول كاتب السيرة تغيير بعض حقائق الأحداث خدمة لمصلحته باضافة أشياء أو باختزال اخرى، فهو لا يستطيع أن يخبىء ما يعرفه بحيث أن الذاكرة تستحضر الفكرة كما تراها وبرؤية الحاضر لكنها لا تلغيها والا فما قيمة الكتابة ؟

هذه الواقعة تقودنا الى ما يسمى بالكذب المقصود والذي لا يستطيع القارىء أن يميزه أو أن يتحققق منه الا بالعودة الى الشخصيات التي لها علاقة بالحدث المذكور، وهناك الكذب غير المقصود أو الكذب اللاواعي ، وهو الخبر الذي يأتي به الكاتب من مكان ما في ذاكرته ظنا منه أنه واقعة حدثت في الماضي الا أن تذكر هذا الحدث فيه الكثير من التشويش وغبار الرؤيا ، وفي أغلب الأحيان لا يلجأ كاتب السيرة الذاتية الى من قد يتحقق منه حقيقة الخبر، فيبقى الخبر مصدر شك وعدم يقين . فاذا اعتبرناه كذبا ، انه كذب دون قصد صدر

---

[1]- شرف 22.
[2]- ماي 57.

عن اللاوعي وحضر في السيرة الذاتية ليخدم الشخصية في اطار استجابة نفسية لحاجة ضمنية غير واضحة في عالم الشخصية الواعي.

واستنباط ما في داخل اللاوعي مهم جدا للانسان كي يفهم ذاته ؛ فبغوصه في أعماق ماضيه واحيائه الأزمات التي طوتها سنوات العمر الماضية ، يواجه كاتب السيرة الذاتية ذاته مباشرة ويكشف الأقنعة التي تقف حاجزا بين الوعي واللاوعي ، فلا يعود النسيان يتحايل على الذاكرة ويتناسى ، ولا تعود الذاكرة تحتال على النسيان وتهرب الذكريات . وحين يزول الستار وتتوضح الأشياء يتصالح الفرد مع ذاته ومع المجتمع ، ويتوازن الوعي مع اللاوعي ويتوحد اذ أنه : " على الانسان أن يقيم تعاونا بين الوعي واللاوعي اللذين لا ينكفان عن الصراع والاصطدام. وذاك صراع بين التقاليد والمثل العليا وبين المكبوتات. وما المرض النفسي سوى عدم التعاون بينهما أو عدم تكاملهما والتوفيق بينهما " [1] . والأهمية التي أعطاها يونغ للاوعي ، شاركه بها أدلر وفرويد لأن اللاوعي يخفي طبيعة الانسان وحقيقته ، واذا أراد الانسان كشف هذه الطبيعة وحقيقتها ، عليه تجاوز كافة الحواجز لبلوغ اللاوعي وفهم نفسه كما هي بصدق وشفافية وبدون مواربة .

الا أن الصدق الخالص أمر شبه مستحيل والنسيان هو أهم عوائقه اذ أن الكاتب ، " لا يستطيع مهما فعل، أن يتخلص من الحاضر الذي يكتب فيه ليلتحم بالماضي الذي يرويه"[2]، فهو لا يتذكر تماما لحظات الحدث، مما يولد الفجوة الزمنية بين الحاضر والماضي، أي بين زمن الرواية وزمن الكتابة ويجعل الصدق في كتابة السيرة الذاتية منقوصا . فعملية " الصدق المحض في السيرة الذاتية – رغم أنها أصدق الفنون الأدبية

---

[1] - Jung 257.

[2]- ماي 94 .

تصويرا للانسان – هو مجرد محاولة ، وهو صدق نسبي ، وليس شيئا متحققا " [1] ، مهما قسى على نفسه الكاتب واسترجع من ذاكرته كل مخزوناتها ، وان كان " قد راعى الكثير من هذه الترجمات الذاتية ، الصراحة والصدق والتجرد في كثير من النظرات والآراء والتجارب المتصلة بالذات وبالشخصيات " [2] .

والمشكلة في الصدق ليست فقط في النسيان بل أيضا في الحياء . فكاتب السيرة الذاتية يغوص في أعماق ماضيه راسما صورة لذاته ، محاولا أن تكون على وجه التقريب صورة طبق الأصل. لكن قلة قليلة من هؤلاء الكتاب تجرأوا على استعادة الأحداث التي تستدعي منهم الحياء والخجل . وهذه القلة هي التي حذت حذو شكري وكتبت ما لها وما عليها .

الا أن كثيرين من كتاب السيرة الذاتية التزموا الشفافية في نقل الماضي بما فيه، كما التزموا الموضوعية في نقل صور الشخصيات القريبة والبعيدة عنهم، وقد وجدنا مثل ذلك في سيرة نعيمة والحكيم وغرين وعسيران وأمين وطه حسين وغيرهم. فمنهم من دخل في تفاصيل حياته الشخصية والخلافات التي حصلت بين أبويه، ومنهم من لم يشعر بالحرج من ذكر مساوىء معاملة أهله له وفقر حاله . لقد كتبوا بموضوعية خلافا لآخرين كالعقاد مثلا الذي أصابه الغرور فنقل فقط ما زاد من أهميته كأديب وصحفي بارز ولم يدخل في تفاصيل قد تقلل من شأنه أو رفعة حاله أمام قارئه.

وفي كل الحالات، أن السيرة الذاتية هي مقدرة على التذكر وطاقة محركة ومثيرة للاوعي ومكنوناته رغم ما يشوبها من صعوبات وعقبات . وهي تستلزم مقدرة على الكتابة فيها من الابداع ما يجمع ما في حياتنا الماضية من أفكار متداعية، وما في داخلنا جميعا

---

[1]- عبد الدايم 6.
[2]- عبد الدايم 38.

واضحا ومعبرا. والأفكار المتداعية من الماضي ترتكز على القدرة التذكرية التي تحتاج لفترة من الاستبصار الذي يعتمد على تحليل الأمور وفهمها عن طريق طرح الأسئلة والبحث عن أجوبة لها ، وهي طريقة يستخدمها الطب النفسي "كأسلوب لعلاج المريض النفسي ومساعدته على فهم الأسباب الحقيقية والمعاني وراء المواقف" [1] . وتحليل المواقف هو فهمها ، ولكي يفهم الانسان الأمور والمواقف الماضية لا بد له من أن يسترجع التجارب الماضية عن طريق تذكرها ؛ لكن أمر تذكرها بالكامل أمر غير وارد لأن الماضي بالنسبة للحاضر أمر مجتزأ وغير متسلسل . لذلك ، " في هذه الحالة ، تغدو الاستعانة بالخيال أمرا ضروريا ، لأن رواية الحقيقة الخالصة عن الانسان ، أمر بعيد التحقيق، وربما يكون مستحيلا مهما حرص المترجم على الالتزام بالصدق فيما ينقله عن حياته " [2] .

والانسان يتفاعل مع قدرة التذكر المثيرة للاوعي عبر الأحلام ، في رأي يونغ . والأحلام هي تعبير معين ورمز عن حالة حقيقية يمر بها الانسان . يقول يونغ : " ان الحلم تعبير شخصي هام ، ومكمل للاوعي الفردي . انه ظاهرة حقيقية تجمع الحالم برموز ذات أهداف خاصة لها معان تخصه وحده دون سواه " [3] . فالحلم خطوة مهمة في معرفة الذات اذ أنه مليء بالرموز التي تدله على معان لذاته وعن ذاته ، رغم أن الكثيرين قد لا يولون الأهمية لأحلامهم وحتى لا يتذكرونها ، وآخرون يتأثرون بها ويتمسكون بتفسيرها وتحليلها . فهل هي وهم أم حقيقة؟

ان غرين لا يعتقد أن الأحلام وهم ، لطالما شكلت أهمية كبيرة لديه وخاصة في حياته العملية : "ان الأحلام ، وربما لأني تعالجت عند طبيب نفسي وأنا فتى صغير ، كان

---

[1]- الشربيني 177.
[2]- عبد الدايم 465.

[3] - Jung 13.

لها أهمية كبيرة عندما كنت أكتب" [1] . وحين رسم شخصية "كويري" في احدى رواياته اعترف بقوة الحلم وحقيقة وجوده في حياته قائلا : " إن كل الرموز، والذكريات ، وتداعيات الحلم كانت متعلقة وبوضوح بشخصية كويري التي رسمتها دون أن أدخل عليها أي تغيير يذكر ، كما ان هذا الحلم غطى الثغرات التي لم أكن أعرف كيف أغطيها في الرواية "[2] . وأثبت قوله في مكان آخر حين قال : " هناك روايتان ، وقصتان قصيرتان خرجت من أحلامي ، وفي بعض الأحيان كان لدي تلميحات بما يسمى بالاسم الصعب لمفهوم الحاسة السادسة "[3] . كما كانت تتكرر أحلامه كثيرا عن أبيه قبل وبعد مماته " لقد حلمت بأبي أياما كثيرة من قبل، .. وكان هناك حلم شكل خاتمة سلسلة من أحلام تكررت لمدة سنوات بعد مماته " [4] .

وكان كلما استعصى عليه أمر ، يبحث عنه في الأحلام فيجده : " فقد وجدت كتابا في أحلامي كنت أبحث عنه طويلا فوق رف معين ، وفي الصباح ، وقبل أن أتناول فطوري، نزلت الشارع أتحقق من صدق حلمي . لقد خاب ظني ؛ الكتاب لم يكن موجودا ، لكني لاحظت فجأة حين دخلت الحانة أن الرائحة التي اعتدت عليها قد تغيرت ، وبدون هذه الرائحة يعني أن الحانة ليست هي نفسها " [5] ، أي وبشكل غير مباشر، أكد غرين أن حلمه كان يتحقق ، وأن أياً من أحلامه لم يكن دون معنى .

أما شكري ، فقد عاش عمرا كاملا في "زمن الأخطاء" ، وكان يعتبر أن أحلام الفقراء بسيطة ، وبأن الفقراء " هم الحالمون الحقيقيون"[6] الذين يطمحون بالأكثر : " لنحلم

---

[1] - Greene, *Ways of Escape* 284.
[2] - Greene, *Ways of Escape* 284.
[3] - Greene, *A Sort of Life* 32.
[4] - Greene, *A Sort of Life* 27.
[5] - Greene, *A Sort of Life* 77.

[6]- شكري ، الشطار 114.

قليلا أكثر . أكثر من الحلم"[1]. وهكذا يبقى الحلم لديه متنفسا يبعده عن قذارة الزمن الذي عاشه، وقسوة الواقع الذي فرضته الظروف عليه ، فهو ليس حقيقة وليس وهما بل أسلوب يحاول به السيطرة على الوضع المزعج الذي يحيط به . فالحلم قد يرمز الى أوهام او خيالات أو ذكريات أو حوادث معينة لا تعني سوى صاحبها، فسواء كان الحلم حقيقة كما عند غرين ، أم وهما كما عند شكري ، فانه ترجمة حسية لمشاعر الانسان يشترك بها مع أخيه الانسان شرقيا كان أم غربيا .

---

[1]- شكري، الشطار 135.

الخـاتمـــــــــة

" ان الذكريات كالليل المكسور. وكلما أكتب ، أشعر كأني أستيقظ من نومي باستمرار لألتقط صورة، أتمنى أن تمسك بيقظتها حلما بأكمله ، لكن الجزئيات تبقى جزئيات، والرواية الكاملة تهرب دائما"[1] . ورواية الحياة لم ولن تكتمل ، ليس فقط عند كاتب السيرة الذاتية ، بل عند أي كائن بشري ، لأن الله خلق فينا نحن البشر نقصا يتوق للكمال وكمالا يتوق للوجود .

ان حكاية السيرة الذاتية حكاية ذكريات تنطوي على حقائق لو يدركها الوعي ينكشف سر الذات المنطوية على ذاتها ، والتي مهما بلغت من جرأة وصراحة يبقى هناك ضوابط وحدود لأشياء محجوبة حتى عن الذات بنفسها . فان أصعب المهمات في الحياة هي حين يقرر المرء أن يعبر حبر الزمن الحاضرعن دم الزمن الماضي بحنينه وآلآمه وأفراحه وأحزانه ؛ لكأن الانسان يحيا حياته مرتين.

ليس للألم هوية ولا لغة، ومع ان البيئة والحضارة والظروف الحياتية المختلفة تلعب دورا كبيرا في رسم الفرق بين سيرة وسيرة، الا أن الألم يبقى اللغة الموحدة والأسلوب الذي يجمع ما تفرقه الاختلافات الجغرافية والاجتماعية والبيئية والتاريخية وحتى الحضارية.

---

[1] - Greene, *A Sort of Life* 33.

في السيرة الذاتية، عربية كانت أم أجنبية، يبدو الكاتب في البداية في حالة نفور مما يفعله، ويبرز ذلك في هروبه من حاضره والحنين الى ماضيه بأثقاله . فما من كاتب سيرة بدأ استذكار سيرته الذاتية من الزمن الحاضر بالعودة الى الزمن الماضي ، وما من كاتب سيرة استذكر الزمن الماضي ليستعيد أيام الفرح ويخبر بمدى الراحة التي احتضنت طفولته. ان المشترك في السير الذاتية هو أن الكاتب كان دائما يبحث عما يريحه؛ لكأنه يفتش في الأقبية القديمة عن طريق يسلكها نحو الأمان. ولقد وجدت مع نهاية بحثي أن البعض اختاروا الكشف عن الأزمات المتراكمة داخل طبقات الزمن، ليجدوا الحلول و الشفاء والطمأنينة. أما البعض الآخر، فقد ظنّ أنه سلك طريق العلاج لكنه لم يكن صريحا مع ذاته بما يكفي ليكشف الأزمات المتراكمة ويزيل عن نفسه الحجاب، وان لم يسلم من عيش الماضي مرتين: مرة في أوانه ومرة عند تذكره.

وكم هو صعب أن يعيش المرء الحقيقة مرة وأن يواجهها مرة أخرى بحلوها ومرها. والهروب من الماضي يكون بنسيانه أو تناسيه أو تبريره، أما الهروب منه اليه، فانه اعتراف بوجود مشكلة فيه، وقبول بالبحث عن الحلول . فلكأننا أمام عقدة سببها سوء العلاقة بين الولد وأبيه وتطورت لتطال علاقته بالمجتمع كله ، ولم يعد له متنفس سوى التعبير عنها بالكتابة . ولقد اعتبرت في بحثي أن كتابة السيرة الذاتية مطابقة تماما لما يطلبه الطبيب النفسي المعالج من مريضه : الكلام عن الأحداث التي مرت ، والذكريات التي طواها النسيان. فباستعادة الماضي بلسان الحاضر تساعد الراوي على كشف القناع عن ذاته، وعلى المصالحة مع نفسه التي خاصمها دون أن يدري كما فعل شكري لفترة من الزمن ، وكما فعل غرين من خلال محاولات انتحاره المتعددة .

كان هدفي من هذا البحث أن أثبت دور السيرة الذاتية الفعال في معالجة مشاكل الكاتب النفسية المزمنة وفي شفائه منها. فمع أنه ليس بالضرورة أن تأخذ كل سيرة ذاتية منحى العلاج النفسي بصورة واعية، ولكنها تُظهر جانبا نفسيا كبيرا من صاحبها وتجعل منه قلما شفافا وذاتا مكشوفة كالكتاب المفتوح . إن البيئة الاجتماعية تلف الانسان بالحجاب منذ الولادة وتستر حقيقته، ولكن كشف الحجاب عن العيوب والتجارب والأخطاء يساعد الأفراد على تبادل الخبرات، والاستفادة من تجارب الآخرين، والتخفيف من أثقال الكبت والتستر عن السيئات، ويشجع على الصدق ويمنع تفاقم الأزمات الاجتماعية ويحمي القيم والمبادىء.

ووجدت أن السيرة الذاتية لا تقوم على منهج علمي بل على شهادات من الذاكرة تحمل الكثير من الذاتية، وبالتالي لا يمكن اعتبارها مادة من التاريخ لغياب الدقة الموضوعية والنتائج المؤكدة. الا أن السيرة تبقى شهادات حية على معاناة الانسان في أي بقعة على الأرض. وتبين المقارنة أن هناك الكثير مما يجمع فوق حواجز الزمان والمكان واللغة.

لقد سعيت جاهدة أن أثبت لذاتي أولا ، ومن ثم للآخرين ، أن كشف الحجاب أمر مرغوب وبأن سفور الذات أمر غير مستحيل ، ولكني لم أجد حجابا كشف عن الوجه كله، ولا ذاتا سفرت عن كل ما فيها.

المراجع العربية:

- ابن منظور. لسان العرب. الطبعة الثالثة. بيروت: دار صادر، 2004.
- ادل، ليون. فن السيرة الأدبية. ترجمة صدقي حطاب. بيروت: دار العودة، 1988.
- أدلر ، ألفرد. فهم الطبيعة الانسانية . القاهرة: مكتبة دار الكلمة ، 2006 .
- الباردي، محمد. انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000.
- باشلار، غاستون . جماليات المكان . الطبعة الخامسة . ترجمة غالب هلسا . بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . 2000.
- بركات، علي عبده. اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية. الطبعة الأولى. المملكة العربية السعودية: مطبوعات تهامة، 1982.
- بن الوليد، يحيى. " مع شكري". مجلة القدس. 29 ، كانون الثاني، 2002.
- التميمي، أمل. السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر. الطبعة الأولى. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005.
- أمين، أحمد . حياتي. الطبعة الرابعة. القاهرة: مكتبة النهضة العربية المصرية ، 1961.
- حسين ، طه. الأيام . الجزء الأول. القاهرة: دائرة المعارف ، 1966.
- الحيدري، عبدالله بن عبد الرحمن . السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي. الرياض : دار المعراج الدولية للنشر ، 1998.
- راغب، نبيل. دليل النقد الأدبي . القاهرة: دار غريب للطباعة: 1981.
- روسو، جان جاك. اعترافات جان جاك روسو. ترجمة حلمي مراد. دمشق: دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- رووكي تيتز. في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية. الطبعة الأولى . ترجمة طلعت الشايب. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002.
- زيعور، علي. مذاهب علم النفس مع قراءات ونصوص . الطبعة الرابعة. بيروت: دار الأندلس، 1982.
- زيتوني، لطيف. معجم مصطلحات نقد الرواية. الطبعة الأولى . بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، 2002.
- ستور، أنطوني. فن العلاج النفسي. الطبعة الثانية. ترجمة لطفي فطيم . بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ، 1992.
- شاكر، تهاني عبد الفتاح. السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا ابراهيم جبرا واحسان عباس نموذجا. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.
- الشربيني، لطفي. موسوعة شرح المصطلحات النفسية. الطبعة الأولى . بيروت : دار النهضة العربية، 2001.
- شرف، عبد العزيز. أدب السيرة الذاتية. الطبعة الأولى. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1992.
- شكري، محمد.

- الخبز الحافي: سيرة ذاتية روائية. الطبعة الثامنة. بيروت: دار الساقي ، 2004.
-الشطار. الطبعة الخامسة. بيروت: دار الساقي ، 2004.
- "مزامنات : محمد شكري" . جريدة الزمان. عدد 1962، 2004
- ضيف، شوقي. الترجمة الشخصية . القاهرة: دار المعارف. 1956.
- طوقان ، فدوى. رحاة جبلية رحلة صعبة . الطبعة الثالثة . عمان : دار الشروق ، 1988.
- عبد الدايم، يحي. الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث. بيروت: دار النهضة العربية،1974.
- العثمان، ليلى. المحاكمة: مقطع من سير الواقع. الطبعة الأولى. دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2000.
- عسيران، ليلى. شرائط ملونة من حياتي. لندن :دار الريس للكتب والنشر، 1994.
- العقاد ، عباس . أنا. القاهرة : سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم 160 ، 1964.
- عواد، توفيق يوسف. حصاد العمر. الطبعة الثانية. بيروت: مكتبة لبنان، 2001.
- فرويد، سيغموند . علم النفس الجمعي وتحليل الأنا . ترجمة جورج طرابيشي. بيروت: دار الطليعة، 1983.
- فهمي ، ماهر حسن . السيرة تاريخ وفن . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ،1970.
- لحمداني، حميد. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. الطبعة الثالثة. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.
- ماي، جورج. السيرة الذاتية . ترجمة محمد القاضي وعبدالله صولة. تونس: بيت الحكمة، 1994.
- موورا ، أندريه. فن التراجم والسير الذاتية. ترجمة أحمد درويش . القاهرة: المكتبة المصرية العامة، 1997 .
- النابلسي، محمد أحمد. فرويد والتحليل النفسي الذاتي. الطبعة الثانية. بيروت: دار النهضة العربية. 1988.
- هال، كلفن. أصول علم النفس الفرويدي. ترجمة محمد فتحي الشنيطي. بيروت: دار النهضة العربية، 1970.
- نعيمة، ميخائيل. سبعون: حكاية عمر. المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمة. الطبعة الأولى. بيروت: دار العلم للملايين، المجلد الأول، 1995.
- نوري، عقل . " النظام الأبوي حقيقة مطلقة" . مجلة الجندول. السنة الثالثة. العدد 25(نوفمبر)، 2005.

REFERENCES

- Beauvoir, Simone de. *The Prime of Life.* Translated by Peter Green. Cleveland and New York: The World Publishers, 1960.
- Gunn, Daniel. *Psychoanalysis and Fiction.* Cambridge: Cambridge University Press, 1999.
- Allen, Roger, Kilpatrick, and Ed de Moor editors. *Love and Sexuality in Modern Arabic Literature.* Beirut: Saqi, 1995.
- Greene, Graham.
  - *A Sort of Life.* New York: Simon and Schuster, 1971.
  - *Ways of Escape: an Autobiography.* NewYork: Simon and Schuster, 1980.
- Hartmut Fahndrich. "Fathers and Husbands: Tyrants and Victims in Some Autobiographical and Semi-Autobiographical Works from the Arab World". *Love and Sexuality in Modern Arabic Literature.* Eds. Rodger Allen, Hilary Kilpatrick and Ed de Moor. London: Saqi, 1995.
- Jung, Carl G. *Man and His Symbols.* London: Aldus Limited, 1972.
- Sherry, Norman. *The Life of Graham Greene.* Vol. I and II. Penguin, 1994.